الدِّيانة المَندائية

عبد الحَميد أفندي عبادة

مع

الصَّابئة المَندائيين

في فقه وتاريخ الإسلام

تقديم وتحقيق: رشيد الخيُّون

مدارك

الدِّيانة المَندائية

عبدالحَميد أفندي عبادة

مع الصَّابئة المَندائيين

في فقه وتاريخ الإسلام

تقديم وتحقيق
رشيد الخيُّون

الكتاب: الدِّيانة المَندائية عبدالحَميد أفندي عبادة
مع الصَّابئة المَندائيين في فقه وتاريخ الإسلام
تقديم وتحقيق: رشيد الخيُّون
التصنيف: أديان ومذاهب
الناشر: دار مدارك للنشر
الطبعة الأولى: ديسمبر (كانون الأول) 2011

دبي: مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي – الإمارات العربية المتحدة
P .O .Box 333577 :Dubai - UAE
Fax.: 00971 4 361 5177 - Tel: 00971 4 361 5178
بيروت: فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت – لبنان
P .O .Box 50074 :Forn Elchebbak - Lebanon
Fax.: 00961 1 282075 - Tel: 00961 1 282074

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ مدارك.
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من مدارك.

{يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}

(سورة مريم، الآيات: 12-15)

مقدمة المحقق

بعد قراءة تعليق مقتضب في مجلة «لغة العرب العِراقية» (1927)، ومجلة العربي الكويتية (1966) لمصطفى جواد حول كتاب «مندائي أو الصَّابئة الأقدمين» لعبدالحميد أفندي بن بكر أفندي عبادة (ت 1930)، (طبعة الكتاب الأُولى: بغداد، مطبعة الفرات 1927)، أخذت أبحث عنه، فأهميته تكمن كونه أول كتاب صدر بالعربية حول الدِّين المندائي، وثانياً أنه كان حصيلة حوار مباشر مع الشَّيخ كنزبرا([1]) دِخَيِّل بن عيدان بن داموك، رئيس الطَّائفة المندائية بالعراق آنذاك.

في المؤتمر المندائي الثَّاني المنعقد بـ استوكهولم – السويد (9–10 أغسطس/آب 2002) وبحضور شيخ الطَّائفة ببغداد، التَّرميذا آنذاك، والكنزبرا حالياً، ستار جبار حلو، سألت عن الشَّيخ دِخَيِّل، وعن كتاب عبدالحميد عبادة الآنف الذكر. أشار الحاضرون إلى رجل خمسيني العمر يقف قريباً مني، قالوا: إنه ولده. سألت حميد الشَّيخ دِخَيِّل عن الكتاب، فقال: لدي نسخة منه ببغداد. وأكد قصة الكتاب، التي تعود إلى العام 1925، وما جرى مِن مقاضاة والده لعبدالرَّزاق الحسني في قاعة المحكمة ببغداد العام (1931)، فكان كل ما قرأته عن الحادثتين مطابقاً.

كان حميد متحمساً لإحياء تراث والده، ونشطاً في التَّحضير للمؤتمر، يشاركه في ذلك سعدي السَّعدي، وموفق ابن الشَّخصية التربوية المرموقة غضبان الرومي، وطبيب النَّفس أمين الخميسي، وفوزي صبار طلاب، ولؤي عزام، وآخرون مِن أبناء الطَّائفة الذين حطوا عصا ترحالهم بأرض السُّويد.

في غضون لحظات انبرى فوزي صبار قائلاً: «ضالتك عندي». فسلمني كتاب «مندائي أو الصَّابئة الأَقدمين» مشكوراً، لأقوم بتحقيقه ونشره، بعد أن عجزت عن العثور عليه مِن المكتبة البريطانية، ومكتبة الاستشراق بلندن، ولم تنجح جهودي للحصول عليه مِن بغداد والأردن، حيث يُقيم العراقيون الفارون مِن الحصار (1990–2003)، وقبلها مِن حرب الخليج الأولى (1980–1988)، والثَّانية (1991).

كان الكتاب ملخص حوار أجراه عبدالحميد عبادة العام (1925) مع رئيس الصَّابئة المندائية الشَّيخ كنزبرا دِخَيِّل بن عيدان بالنَّاصرية جنوب العِراق، يوم كان موظفاً هناك، وكانت تلفت نظره الموضوعات النَّادرة. ومثلما تقدم الحديث، أنه، على حد علمي، أول كتاب يُنشر بالعربية عن الدِّين المندائي، فمقالات الأب أنستاس الكرملي (ت 1947) التي حبرها في مجلة «المشرق» (1900– 1901) في مطلع القرن العشرين يوم كان مراسلها ببغداد، لم تُنشر بكتاب خاص، وكنت جمعتها ونسختها مِن المجلة المذكورة على أمل إصدارها في كتاب، لكني وجدت فيها ما يتعارض مع حقيقة الطَّائفة.

لكن لعلَّ عبادة أخذ نصوصاً كاملة من بحث «الصَّابئة عقائدهم وتقاليدهم» للباحث الدِّمشقي نقولا سيوفي (ت 1901)، وكان زار بغداد العام 1873، والتقى بأحد أولاد شيوخ الصَّابئة، واسمه

آدم([2])، وصنف كتابه بالفرنسية العام 1880، واطلعنا على ترجمة لمواده بالعربية في مجلة «البيان» (1897)([3])، ومِن مقالات الكرملي، دون الإشارة إليهما.

غاب كتاب عبدالحميد أفندي عبادة بعد صدور كتاب عبدالرَّزاق الحسني «الصَّابئون في حاضرهم وماضيهم»، الذي صدرت منه الطَّبعة الأولى (1931) والعاشرة (1980).

لم يُعَد نشره «كتاب مندائي» بعد وفاة مؤلفه (1930)، أي بعد صدوره بثلاثة أعوام، لكن المفاجئ في الأمر أن الحسني، بعد الاستفادة من فكرة الكتاب، وموضوعه للكتابة والتأليف في الملل والنحل، فمن غير الصَّابئة؟ أصدر الحسني «اليزيديون في حاضرهم وماضيهم»، و«البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم». اختطف الكثير من مقالة نقولا سيوفي ونصوص كتاب عبادة دون الإشارة، إلا في مكان لا علاقة له بالنُّصوص الرَّئيسة المقتبسة، ولا يبرر له انتحاله ذِكر الكتاب في ثبت المراجع، وكذلك فعل مع ما كتبه الأب الكرملي في «المشرق» البيروتية، فقد أخذ ما جناه الكرملي من الكتب القديمة مع تعليقاته عليها، فكتب: قال ابن خلدون وقال الآمدي وغيرهما، مع أنه جناها من مقالة الكرملي.

إن استولى الحسني على جهود عبادة والكرملي، فهو ذكرهما في ثبت المصادر، لكن الأكاديمي السوري، ورئيس قسم الجغرافيا بجامعة حلب، محمد التَّونجي سطا على كتاب الحسني «اليزيدون في حاضرهم وماضيهم» ليجعله كاملاً، مع بعض التَّغييرات، كتاباً له (راجع جريدة «الشرق الأوسط»، 14 أغسطس/آب 2001. ومجلة «النقاد» اللبنانية، 3 سبتمبر/ أيلول2001). ومثلما تعرض كتاب الحسني «اليزيدون...» للسطو، تعرضت كتب الليدي دراوور «الصَّابئة المندائيون»، وكورت رودولف «النشوء والخلق في النصوص المندائية»، وغضبان الرومي «الصَّابئة»، من قبل العِراقي محمد الجزائري في «المندائيون الصَّابئة» (راجع الشَّرق الأوسط 18 ديسمبر/كانون الأول 2001).

استغرق بحث نقولا سَيوفي حول الصَّابئة، والذي نشره بباريس (1880)، مئتي صفحة، يوم كان وكيلاً للدَّولة العثمانية بالموصل، وهذا المقال، الذي نشرته مجلة «البيان»، ربما هو الذي أوهم الباحث أحمد زكي باشا (ت 1934)، في تقديمه لكتاب عبدالرَّزاق الحسني «الصَّابئون في حاضرهم وماضيهم»، وقال بأنهم سكنة الموصل.

ما جاء به عبدالحميد عبادة، ثم الحسني، كان مشابهاً إلى حد بعيد لما ورد في بحث سيوفي، منها مولد يحيى ومماته، واعتقادهم بالله والكائنات النُّورية، ونزول هيبل زيوا إلى عالم الظَّلام، وما يتعلق بالجنة، وعالم الظَّلام وولادة الكائن الخرافي «أور»، وأنواع العذاب الأخروي، والشَّعائر التي تتعلق بالموت والولادة، والشَّجرة التي ترضع الأطفال الأموات، وما يتعلق بأعيادهم، والطَّوفان، وما يتعلق بزكريا والياصبات. وقد كرر المؤلف الأخطاء نفسها التي ورد في بحث نقولا سَيوفي([4]).

سبق عبدالحميد عبادة منتقديه لاهتمامه بالمندائيين بالقول: «قصدت بذلك الاطلاع على أساس هذا الدِّين، أن الرَّجل لا يعرف فضل دينه إلا وأن يعلم شرائع الأمم السَّائرة»، وإن الدِّين المندائي، على حد عبارته، دين خفي عن أبصار المحيطين، فحاول وضعه تحت بصر العراقيين، مع أن الغرب أهتم بهذا الدِّين منذ القرن السَّابع عشر الميلادي، فرسم البرتغاليون خارطة وجودهم

بجنوب العراق (1663)([5])، وفي العام 1691 كُتب أول بحث عن الصَّابئة بالسويد([6])، ثم توالت الدِّراسات الأوروبية في القرون التَّالية حتى وقتنا الحاضر.

حاول المؤلف، في عدة مواقع من الكتاب، أن يكون أميناً في نقل إجابات الشَّيخ دِخَيِّل على استفساراته، إلا أنه وقع في أخطاء ليست بالقليلة، سواء كان بتلفظ أسماء الأشخاص أو الكتب، أو تحديد الطُّقوس. إلا أن عمله هذا كان بداية صادقة وانشغالاً يلفت النظر، وربما لمستوى الطَّباعة آنذاك إسهام في تلك الأخطاء.

نشرت «لغة العرب» في باب «المشارفة والانتقاد» تعليقاً حول صدور الكتاب، جاء فيه: «في العراق فرقة دينية قديمة اسمها مندايا، والعامة تسمّيها الصَّبة (وزان قبة)، والفصحاء يسمونها الصَّابئة، وكان يسميها السَّلف صابئة البطائح. وقد جمع حضرة الأديب عبدالحميد أفندي عبادة كل ما سمعه من أحد شيوخ هذه الفرقة، وهو شيخ دِخَيِّل، ودوّنه بدون نقد، وبدون أن يطالع ما كتبه مَنْ تقدمه في هذا البحث([7]). وهذه الصَّفحات تحوي كل ما قاله الشَّيخ دِخَيِّل. وأنت تعلم أن من مصالح الفرقة الخفية الدِّينية أن تخفي ما تؤمن به مِن الأسرار، وتجهر بما يحسِّنها في نظر الذين يحيطون بأصحابها. فهذا الكتاب، مِن هذا القبيل، مما يُحرص

عليه لأنه لسان حال الزَّاعمين، لا لسان حال ما هم عليه من صحة ما يعتقدون»([8]).

لعله يقصد بعبارة «دون أن يطالع ما كتبه مَنْ تقدمه في البحث» مقالات الأب أنستاس الكرملي في مجلة «المشرق» البيروتية (1900–1902)، والشكوك التي سجلها الكرملي ضدهم، مع الميل إلى أنهم فرقة مسيحية ضالة.

إن ملاحظة المؤلف في الكتابة عن المندائيين في ذلك الزَّمن، أي قبل خمسة وسبعين عاماً حسب طبعة تحقيقنا الأُولى، وأربعة وثمانين عاماً مِن الطَّبعة الثَّانية، لا تخلو من فطنة، ومحاولة للتعريف بهذا الدِّين، ولحساسية الموضوع، لجأ الكاتب إلى ما يضعف بحثه، خصوصاً عند المفاضلة بين الإسلام والصَّابئة المندائيين، وجعل الإسلام ناسخاً ومبطلاً للأديان الأُخر، مع أنه يكتب عن دين ما زال حياً بين المسلمين، واعترف له القرآن بالوجود في ثلاث من آياته، وأن هناك العديد مِن متعلقات هذا الدِّين في المسيحية والإسلام نفسه.

كان عبادة بعمله هذا واحداً مِن الموثقين، الذين جذبتهم الموضوعات والظَّواهر الخفية أو الغريبة، مثله مثل عباس العزاوي (ت 1971) وعبدالرَّزاق الحسني (ت 1997) وأحمد حامد الصَّراف (ت 1985)، مع أنه، مثل غيره، استولى على جهود غيره، كما وضحنا ذلك، فشطح وشطحوا كثيراً، العزاوي في «الكاكائية»، والصَّراف في «الشَّبك»، وتغبط الحسني في الأيزيديين والصَّابئة، ومع ذلك كانت أعمالهم مفيدة ومحرضة على البحث، ولا يُنكر تألّق العزاوي والحسني في كتابة التَّاريخ السِّياسي، الأول في «العراق بين احتلالين»، والثَّاني في «تاريخ الوزارات العِراقية».

للشَّيخ كنزبرا ريش أمة([9]) عبدالله الشَّيخ نجم، رئيس المجلس الرَّوحاني للطَّائفة المندائية (1981–1999)، الفضل في تدقيق بعض ما أورده المؤلف على لسان الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان،

ومراجعة النُّصوص المندائية، وقد قصدته لهذا الغرض، وأجاب على ما وجب الاستفسار عنه. قال إنه قرأ كتاب عبدالحميد عبادة، وكان فيه ما فيه من أخطاء، ويبدو أن مؤلف الكتاب ربما لم يسمع من الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان اللفظ أو المعلومة المضبوطة.

حسب ترجمة مير بصري (ت 2006)، المختصرة، لحياة المؤلف، أنه ولد بخانقين العام 1891، وتوفي ببغداد السَّنة 1930، أي لم يعش أكثر من 39 سنة. كتب مقالات في مجلة «لغة العرب»، ومؤلفاته، من غير الكتاب الذي بين أيدينا: «العقد اللامع في ذكر الآثار والمساجد والجوامع»، و«شجرة الزَّيتون في نسبة آل السَّعدون».

قال عنه عبدالقادر البراك: «مَن يستعرض أمهات المجلات العلمية والأدبية والتَّاريخية التي صدرت في العراق وبعض الأقطار العربية، في أوائل القرن العشرين، يجدها حافلة بالعديد مِن المقالات والبحوث التاريخية القيّمة، التي تحدد مواقع بعض معالم الحضارة، وتعرِّف بالعديد مِن الملل والنِّحل والمعتقدات والآراء، للمؤرخ البغدادي المرحوم عبدالحميد عبادة»([10]). واعتبر البراك كتابه «أهم مصدر عن تاريخ الصَّابئة ومعتقداتهم، لكونه قد كتبه بعد أن سكن في قراهم وعايش أقطابهم».

اسم الكتاب بالأصل «مندائي أو الصَّابئة الأقدمون»، ووجدنا العنوان لا يعبّر عن مضون الكتاب، وبالأخص الإضافات التي قمنا بها، وما أُلحق به مِن كراس «الصَّابئة المندائية في فقه وتاريخ الإسلام»، فرتأينا أن يُجمع تحت عنوان «الدِّيانة المندائية».

سيتبع هذه المقدمة فصلان خاصان باثنين مِن رؤساء الطَّائفة، أول رئيس رسمي، عُيّن مِن بعد زوال الحكم العثماني (1971)، كون المؤلف اعتمد عليه في تأليف كتابه، ورئيس الطَّائفة الشَّيخ عبدالله نجم، معتمَدي في تحقيق الكتاب وكراس «المندائية في فقه وتاريخ الإسلام».

كَنزبرا دِخَيَّل بن عيدان

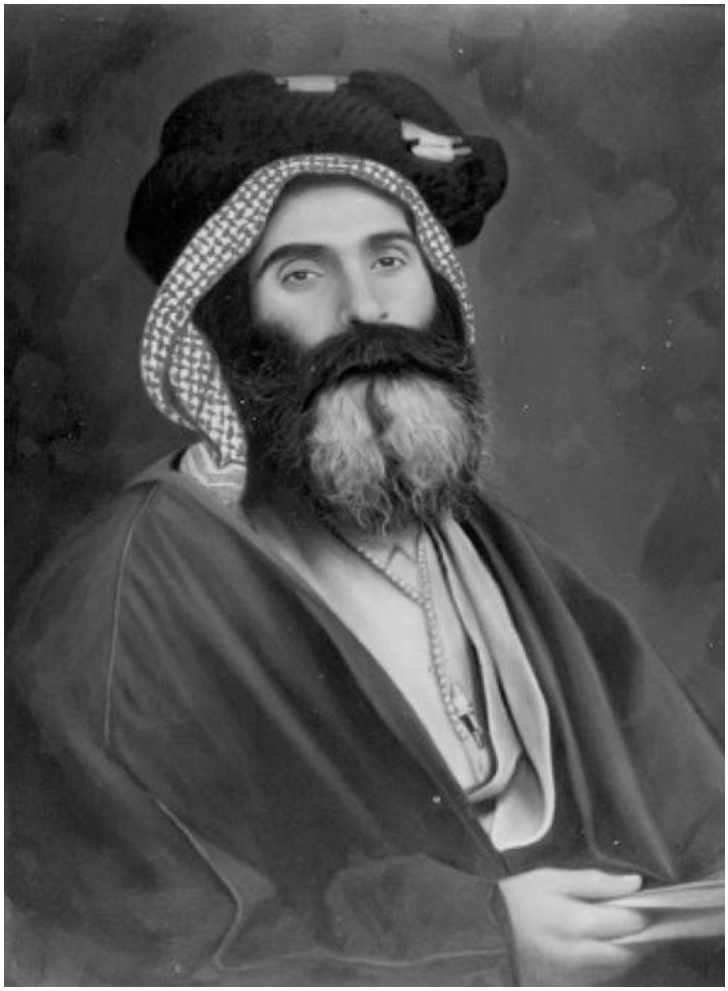

دِخَيَّل بن عيدان بن داموك

الشَّيخ كَنزبرا

دِخَيَّل بن عيدان بن داموك

من دواعي الغرابة أن يمر الرَّحالون، مثل ابن حوقل، وناصر خسرو، وبنيامين، وابن جبير، وابن بطوطة، على شواطئ دجلة والفرات وتخلو أسفارهم من ذكرٍ لفرقة عرفتها هذه الشواطئ كظلٍّ سومري وبابلي، لكن لم تخلُ كتب أبي الحسن المسعودي (ت 346 هـ)، ولا أبي الفَرج النَّديم (ت 438 هـ) مِن أخبارها.

لم يلفت نظر الرَّحالين ما كتبه المؤرخون حول أجداد الشَّيخ دِخَيَّل بن عيدان بن داموك (1881–1964)، وهم يعمّدون ماني بن فاتك في مياه دجلة، بثيابهم البيض، ثياب النُّور،

وعصيهم (المركنات)، عصي النُّور، يتفرسون في الماء حتى عدهم الآخرون سحرة، وهم أهل دين قديم يرقى إلى صحف آدم ونوح وإبراهيم.

قال صاحب «الفهرست» أبو الفرج محمد بن إسحاق النَّديم، وهو الوراق في أسواق بغداد لا المؤرخ ولا الجغرافي، الذي عرف طريقهم فسمّاهم بالمغتسلة والرَّشيين، لارتباط طقوسهم بالماء، وعرفهم بالكشطيين نسبة للمكان المتسامي حيث الجنة المندائية في شمال الكون (مشوني كشطا) ([11]).

الشَّيخ دِخَيَّل، كباقي شيوخ الصَّابئة المندائيين، طوال عقود حياته الثَّمانية لا يأكل إلا ما ذبح وصنع بيديه، ولا يشرب ماءً إلا ما غرفت يداه مِن النَّهر مباشرة، بعد تطهير الآنية بطريقة يصعب تخيّلها، أو من يد مَن يثق بهم دينياً، وكم يكون الأَمر صعب التَّصديق عندما لا يثق رجل الدِّين بطهارة طعام زوجته إذا لم تكن خضعت لطقس ديني خاص. ولم يذق الشَّيخ طعم القهوة والشَّاي، ولا أي مشروب آخر بعيد عن فطرة الماء والنَّبات، يحرّم إيذاء النَّهر والشَّجر، يفتح يومه بعبارة: «بشميهون أد هيي ربي» (باسم الحي ربي)، ويختمه بعبارة «الحي المزكي». ولو علم أصدقاء الأرض، المحتجون عبر مؤتمرات دولية على إيذائها، بودِّ الشَّيخ دِخَيَّل وأسلافه وخلفائه، الفطري لعفوية الماء والتُّراب، لجعلوا ثيابه النُّورية، وعصاه (المركنة)، وحزامه الدِّيني (الزنار) شعاراً لهم.

قد لا يجد المرء إجابة شافية على السُّؤال: كيف احتفظ الصَّابئة المندائيون بكيانهم الدِّيني وبلغتهم الآرامية لدهر طويل، يرقى إلى آلاف السِّنين، وسط محيط لا يعرف عنهم شيئاً غير التَّوقعات والأوهام، وكائن يدعى «شميدهية» نحته العامة من

بسملتهم «بشميهون أد هيي ربي»؟! على أنهم يعبدونه! وكيف تمكن شيوخهم عبر الأجيال من تداول النُّصوص المقدسة بلغة منقرضة، تعد مِن أمهات اللغات الحيّة اليوم؟!

إلا أن مسالمة هؤلاء القوم، التي لا تجيز القتال لأي سبب كان، إلا في حالات الدِّفاع عن النَّفس القصوى، وباطنيتهم المحكمة، وصبرهم على تجاوزات المحيط، ساعدت في استمرارهم أحياءً، منذ عهد نوح وشيت وإبراهيم ويحيى.

مِن الغرابة بمكان أن يُجهل الشَّيخ دِخَيَّل مِن أبناء مدينته الناصرية، بينما يعرفه العالم عبر «موسوعة السِّيرة الذَّاتية العالمية» (1949)، و«كتاب أوروبا السَّنوي» (1962)، ويقصده إلى محلة الصَّبة بالنَّاصرية منذ العشرينيات باحثون أوروبيون في شأن الآرامية والدِّين المندائي، مثل كورت ماتسوخ، وجي ود نكرين، والليدي دراوور، ومن الأمريكيين اتصل به القس صموئيل زومير وكتب في مجلة «المقتطف» (1899)، ومن العراقيين أخذ عنه الأب أنستاس الكرملي، وعبدالحميد أفندي عبادة، ويذكر في الدَّليل العراقي لعام 1936، كرئيس روحي للطائفة المندائية.

كان ما كتبه القس زومير مبكراً بالنِّسبة للكتابة عن المندائيين باللغة العربية، وإن الأب الكرملي، وهو العراقي السَّباق للكتابة في هذا المجال، قد نقل مِن القس ما توصل له العالم اللغوي الألماني جنسيوس مِن اشتقاق تسمية الصَّابئة مِن صباووث العبرانية، أي جند السَّماء. وعلى خلاف

الكرملي، لاحظ زوميز أن الصَّابئة «ليسوا مِن النَّصارى في شيء، ولو أكرموا مار يوحنا إكراماً دينياً»([12]).

تؤكد معلومات زومير أنه زار المنطقة، واتصل برجال الدِّين المندائيين، ومِن الصَّعب بمكان أنه راسل الشَّيخ دِخَيِّل وهو يعد لهذا المقال، فعمر الشَّيخ آنذاك لم يتجاوز الثمانية عشر عاماً. وللقس علم بما حدث للشِّيخ صحن، قال: «اسم رئيس كهنتهم الحالي الشَّيخ سحن (هكذا وردت) وهو مسجون الآن في البصرة»([13]).

اعتمد زومير في جزء من معلومات مقالته على ما نشرته جريدة «الستاندرد» (1894) الإنكليزية تحت عنوان «صلاة عباد النُّجوم»، ورغم عدم صحة عنوان المقال إلا أن زومير اعترف بدقة معلومات الكاتب السَّائح، فقال: «يظهر أن كاتبها يعرف ديانة الصَّابئين تمام المعرفة، إن لم يكن واحداً منهم، لأنني ترجمتها لجماعة منهم فاندهشوا منها، ولما رأوني عارفاً ببعض شعائرهم لم يصعب عليهم أن يطلعوني على البعض الآخر».

جاء في مقال السَّائح: «ينزل عباد النُّجوم إلى ضفة النَّهر عند منتصف الليل رجالاً ونساءً؛ ويدخل كل منهم خيمة صغيرة مصنوعة مِن سعف النَّخل، يدخلها مِن جهة الجنوب، ويخلع ثيابه ويغتسل في حوض مستدير، وحينما يخرج مِن الماء يلتحف برداءٍ أبيض، ويخرج إلى أمام الخيمة، ويجلس على الأرض ويسلم على الذين مِن حوله»([14]).

تحدث صاحب المقال كسائح لا كباحث، لذا ما أن شاهد المندائيين يتجهون نحو الشّمال بدلالة النَّجمة القطبية؛ قال عنهم إنهم عبدة نجوم، مع أن كتابهم يشير إلى تحريم مثل هكذا عبادة، ويجعل النُّجوم جزءاً مِن عالم الظَّلام الزَّائل. إن أهمية مقالة القس زومير تكمن في تقديمها كمحاضرة في جمعية فكتوريا الفلسفية للتعريف بطائفة أرادت لطقوسها أن تظل مخفية عن المحيط، وهذا سر بقائها.

ولد الشَّيخ دِخَيِّل بين بساتين نخيل النَّاصرية المطلة على الفرات، من أبناء عشيرة المندوية، وقتل والده بحادث خلاف مع شيخ صابئي آخر، واعتبر الصَّابئة هذا الحادث خروجاً عن مسلَّمات الدِّين، وربما هي الحادثة الأولى في تاريخهم. قُتل وهو يؤدي الطَّقوس الدِّينية في عيد الخليقة، البنجة (البروناية)، ولم يبلغ الابن سن الرُّشد بعد. لكن أعمامه تولوا تعليمه الدِّيني واللغوي، حتى أخذ الدَّرجة الدِّينية «التَّرميدا العام» (1904)، ثم أخذ الدَّرجة الأرقى وهي «الكنزبرا» (مفسر الكتاب المقدس

الكَنزا ربَّا) العام (1910) بعد اجتياز اختبار عسير جداً، يستمر عادة سبعة أيام، يُعرف بالطَّراسة. وكان قد أتم استنساخ كتاب «الكَنزا ربَّا» العام (1898)، وهو العام الذي ختم فيه دراسته الدِّينية على يد الشَّيخ كنزبرا سام الشَّيخ شبوط([15]).

نزحت أسرة دِخَيِّل مِن العمارة إلى النَّاصرية بطلب مِن مندائييها، بعد خلافهم مع الشَّيخ صحن وجماعته. واحتمت أسرة القاتل عند الشَّيخ سالم الخيُّون (ت 1954)([16])، شيخ عشائر بني أسد

القاطنة منطقة الجبايش وسط الأهوار، وقد شخص الشَّيخ عيدان قاتله، وهو الشَّيخ جابر بن الشَّيخ صحن، قبيل لفظ أنفاسه الأخيرة بلحظات.

تبدو لعائلة القاتل صلة بعشيرة البريجية المندائية، التي تقطن الجبايش، وتحتمي بعشيرة الشَّيخ سالم آنذاك، وكان عدد أُسرها بالمنطقة حوالى 120، هذا ما دلَّت عليه الشاعرة المندائية مكية، وهي تقول يوم قتل والد الشَّيخ دِخَيَّل «جبح يا جبير يجالب الجفيّة، شحصلت يجبير من شور البريجية»([17]). وقد ألقت السلطات العثمانية القبض على الشَّيخ صحن وأولاده واتُّهموا بعمل السحر، ذلك لاستخدامهم الماء في العبادة، وقُتلوا جميعاً، بعد خوف العسكر العثماني مِن سحرهم. وفي الدِّين المندائي ثلاثة لا تغتفر: الشرك بالله، والقتل، والزِّنى بباكر.

ما يؤكد صحة العلاقة الحميمية بين الصَّابئة ومشيخة آل خيون (رسمياً حتى 1924)، هو استمرار وجودهم بين ظهراني عشيرة بني أسد لفترة متأخرة، وكنت سمعت بالعناية بالصَّابئة مِن قبل الشَّيخ حسن آل خيون عبر قصة اشتهرت بمنطقتنا، وهي أن سُرّاقاً سطوا على بيوت الصَّابئة في عشية عيدهم، فسرقوهم واعتدوا عليهم، فلجأ شيوخهم إلى الشَّيخ حسن، وقالوا له بما يُدلِّل على منزلتهم وحظوتهم عنده: «يا شيخ حسن لو الصَّبة صبتك واطرد الإسلام عنها، ولو الإسلام إسلامك أرض الله سعية»! مع أنهم عارفون بأن الشَّيخ حسن آل خيون مسلم. فطيَّب خاطرهم وأمر رجاله ألا ينتصف النَّهار إلا والسُّراق وما سرقوا يحضرون أمامه، فكان ذلك، وطلب مِن الصَّابئة اقتراح العقوبة التي ينصفون أنفسهم مِن هؤلاء السُّراق.

كان الشَّيخ دِخَيَّل سليل أسرة دينية تبوأت الدَّرجات الدِّينية العليا، وهم: جدّه الشَّيخ داموك وأولاده: محيي، وجودة، وعيدان، وقبلهم سلسلة طويلة مِن المشيخة الدِّينية. لقد استفاد الشَّيخ مِن التَّغيرات التي طرأت على العراق بعد الاحتلال البريطاني، إذ تجاوب البريطانيون مع المندائيين، على خلاف العثمانيين الذين لم يعترفوا لهم بتكوين طائفي أسوة بالأديان الأُخر.

على الرغَّم مِن أن إمام مذهبهم أبا حنيفة النُّعمان (ت 150 هـ) اعترف لهذه الطَّائفة بمعاملة أهل الكتاب، ذكر ذلك مفتي بغداد السيَّد أبو الثَّناء الآلوسي (ت 1854) في تفسيره «روح المعاني»، وقبله أفتى بذميتهم الإمام الحنفي أبو يوسف في كتابه «الخراج». لكن معاملة النَّاس معهم لم تتأثر باعتراف السُّلطات العثمانية أو عدم اعترافها، وإنما كانت أواصر المواطنة والجيرة هي المؤثرة غالباً.

صدر أول اعتراف رسمي بالطَّائفة المندائية وبالشَّيخ دِخَيَّل رئيساً لها بتوقيع الحكام السياسيين البريطانيين (حوالى 1920)؛ وهم: الميجر بروان حاكم القرنة، والميجر مارك حاكم العمارة، والميجر دكسن حاكم النَّاصرية. جاء في نص الاعتراف: «صدر أمر بتنظيم وترتيب أمور عمل رؤوساء الدِّين، وتعيين الشَّيخ دِخَيَّل رئيساً على ملة الصَّابئة، وهو بدرجة «كنزفرا»، وبمساعدة التَّرميذا الشَّيخ زهرون والشَّيخ عبد، مع كيفية تنظيم رواتب لرجال الدِّين، ومساعدتهم مادياً لقاء تقديم الخدمات الدِّينية لأفراد الطَّائفة في كل مكان، والطَّلب مِن رجال الدِّين بإقامة مندي (معبد) في كل مكان يوجد (وردت يتواجد) فيه الصَّابئة، هذا أمر»([18]).

غير أن هذا الاعتراف لم يتأثر بالمسيحية، فأكثر الباحثين المسيحيين، ومنهم الأب الكرملي (مجلة المشرق 1900–1902)، يعدون الصَّابئة فرقة منحرفة عن المسيحية، ولا بد من عودة الفرع إلى الأصل، وقد قصدتهم الحملات التَّبشيرية لتعميدهم على المسيحية، بقدر ما تأثر ذلك بنشاط الشَّيخ دِخَيِّل ومطالبته المستمرة وتعريفه بديانته، وبوادر الليبرالية بالعراق آنذاك.

بعد تتويج فيصل الأول (1921) ملكاً على العراق، بعث الشَّيخ عيدان رسالة تهنئة وتعريف، ومطالبة بحقوق طائفته؛ جاء فيها: «إن طائفة الصَّابئة مِن الملل القديمة، وقد تقهقرت مِن وجوه شتى، ووصلت إلى حالة يأسف لها كلُّ ذي وجدان. ولما تشكلت الحكومة العربية التي يرأسها جلالتكم قد دب فيها النَّشاط والتَّقدم، لما تحققت لها من رعاية ومساواة مع باقي الملل والمذاهب، والنُّهوض بمستوى أولادهم، وذلك بإرسالهم إلى المدارس الأميرية للتهذيب والتَّربية».

«وأن أفراد هذه الطَّائفة لها دعوى ومشاغل دينية كثيرة. ومن زمن غير قصير لم يتعين خبير لحسم هذه المسائل التي تحدث بين الأفراد، فاجتمع رؤوساء الأمور في هذه الملة وقدموا عرائض للحكومة الإنكليزية منذ احتلال العراق، وطلبوا منهم المصادقة على ترشيحي رئيساً دينياً لهذه الملِّة. أرجو وألتمس من مراحكم السَّامية أن يصدر أمركم بتصديق رئاستي لأحظى بذلك. هذا والأمر كله منوط بجلالة مليكنا، أطال الله عمره، وتعالى نصره (18 شباط 1922)»([19]).

كان للشَّيخ دِخَيِّل ما أراد، فظل رئيساً لطائفته حتى وفاته ببغداد السَّنة 1964، واشتهر اسمه محلياً ودولياً، بعد أن نُقشت سيرته الذَّاتية في الموسوعة الدُّولية، وفي كتاب أوروبا السَّنوي، مثلما سبقت الإشارة.

على الرَّغم مِن الاعتراف برئاسته للطَّائفة إلا أن مساعيه لم تنجح لتولي القضاء حسب تعاليم دينه في محكمة مندائية خاصة؛ تُبرَم فيها عقود الزَّواج، وفك الخصومات المتعلقة بالدِّين.

اتضح ذلك مِن رسالة وزير العدلية توفيق السُّويدي إلى وزير الدَّاخلية في (28 فبراير/ شباط 1922)، جاء فيها: «أرسل إلى معاليكم طي هذا الكتاب عريضة الشَّيخ دِخَيِّل الشَّيخ عيدان، رئيس ملِّة الصَّابئة التي قدمها إلى جلالة الملك المعظم، لإصدار أمركم بما ينبغي له. لا يمكن منحه سلطة قضائية».

«ويكفي أن المحاكم المدنية تحسم موادهم الشَّخصية طبقاً لعاداتهم، مستعينة أحياناً بالرَّئيس ليُبيِّن قانونهم الرُّوحاني، وعاداتهم في تلك القضية، ولكن يمكن قبوله رئيساً إدارياً لملِّته. هذا وأمر قبوله أو عدمه منوط بتنسيب معاليكم. لا أرى سبباً لعدم قبوله، لأن المستدعي رئيس لهذه الطَّائفة أباً عن جد، ودمتم سيدي» (التوقيع وزير العدلية توفيق السويدي، ونسخة منه إلى صاحب الغرة السكرتير الخاص لجلالة الملك المعظم)([20]).

كانت الخبيرة بالشأن المندائي، وزوجة الموظف الإداري البريطاني بالعمارة، الليدي دراوور، أكثر المستفيدين مِن علم الشَّيخ دِخَيِّل الدِّيني واللغوي، ومن رسائلها إليه: «عزيزي الشَّيخ دِخَيِّل، لقد أرسلت الرِّسالة المرفقة إلى الشَّيخ عبد قبل فترة طويلة، ولكن البريد أرجعها لي، لقد كنت أتوقع كتاب الكَنزا (الكتاب المندائي المقدس)، ولكنك لم ترسله لي، فهل بالإمكان أن يكون جاهزاً (تعني نسخه مِن قبل الشَّيخ بالخط الآرامي) في الخريف عندما أرجع مِن إنكلترا؟».

«أغادر هذا اليوم إلى إنكلترا لمدة أربعة أشهر، وسوف أكتب إليك عند عودتي، رجاءً أرسل كتاب الكَنزا، وعندما أستلمه، وأجده بصورة جيدة، سوف أرسل لك ستة دنانير كما وعدتكم، وأتمنى أن تكون بصحة جيدة. لقد كنا قلقين عليك عندما سمعنا بالأحداث (تعني الثورة الفلاحية في الثّلاثينيات في دائر النَّاصرية)، ونتمنى أن لا شيء قد حدث للصَّابئة في سوق الشُّيوخ».

حسب الليدي دراوور، أمتلك الشَّيخ دِخَيِّل ثقافة جيدة بالحضارة العراقية القديمة، وبما يرتبط منها بالمندائية، فهو يطابق زهرييل أو سيمات هيي المندائية، زوجة هيبل زيوا، وبين إنانا السُّومرية، حبيبة أو زوجة دموزي، وما قابلهما عند البابليين، عشتار وتموز. قالت دراوور: «هناك قدرة خاصة تتعلق بولادة الطِّفل، وتكون مسؤولة عن سلامته قبل الولادة وما بعدها».

«كتاب دراشه اديهيا يتحدث عنها ويدعوها بليليث، والحديث عنها ليس معيباً، وتعتبر بصورة عامة روحاً نورانية رحيمة يطلق عليها اسم زهرييل، وهي ذات علاقة بعشتروت أو الزُّهرة في عبقرية القدرة في مجال التناسل والولادة. ويطابقها الشَّيخ دِخَيِّل مع الزهرة ومع سيمات هيي أيضاً، وهي في الأساطير زوج هيبل زيوا، التي تزوجها حين هبط إلى عالم الظَّلام»([21]).

وهناك مَنْ تحدث عن علاقة ليلى، المشهورة في تراث العشق العربي بليليث العراقية([22])، ولتكن شيطانة العاطفة، فيصدق قول الشَّاعر([23]):

ألا يا حمامات العِراق أعِنَّني
على شجني وابْكينَ مثلَ بُكائيا
يقولون ليلى بالعراق مريضةٌ
فيا ليتني كنتُ الطَّبيب المداويا

وخلاف ما ذهبت إليه الليدي دراوور، تُذكر ليليث في «دراشة إد يهيا» (مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا) بالسُّوء، وهي أحد شياطين عالم الظَّلام، وفي كتاب «الكَنزا ربا» يتم الخلاص منها مع نهاية هذا العالم، فهي، وإن كانت زوجة الملاك هيبل زيوا (يُقابل جبرائيل)، إلا أنها لا تصعد معه إلى عالم النُّور، فهناك سيتم تعميده مِن جديد، وفي علاقتها بهيبل زيوا تذكر تماماً بعلاقة إنانا بدموزي، أو عشتار بتموز.

جاء في «دراشة اد يهيا»: «أذهب إلى الليلياثة وعشترات، ومَن معهما، أولئك الَّذين اختبئوا في الجداول والسَّاحات المغطاة بالقار»([24]). وورد اسم ليليث (الليليثا)([25]) في «الكَنزا ربَّا» اليمين ضمن العفاريت والكائنات الشَّيطانية التي يبتلعها الكائن الرَّهيب لينتهي أمر الدُّنيا في فمه الشَّاسع، كما سيأتي ذكر ذلك.

لقد التقت دراوور أكثر مِن مرة بالشَّيخ دِخَيِّل، وراقبت ممارسته للطُّقوس الدِّينية عن قرب، ومنها الذِّباحة، قالت: «بدأت العملية في بيت الشَّيخ دِخَيِّل مبتدءاً بالرَّهمي، أو الدُّعاء التَّمهيدي، وتفقد الرّسته (اللِّباس الدِّيني)، قطعة قطعة، وبضمنها التاغة، كما وصفت ذلك في موضع سابق. وقف الشَّيخ لإجراء هذه العمليات حافي القدمين فوق حصير في ساحة بيته ووجهته الشِّمال، حاملاً عصاه (مركنه)، ثم هبط إلى النَّهر وبيده قطعة خشب صغيرة، وسكين لا مقبض لها، وقد أوضح بعد ذلك بأن سبب عدم وجود المقبض هو وجوب تطهير السِّكين بحرقها في نار موقدة»([26]).

احتفظ الشَّيخ دِخَيِّل بمخطوط مندائي أرَّخ لمذبحة العصر بحق المندائيين بمدينة العمارة، جنوب العِراق، أيام حاكمها محسن بن مهدي، «وكان السَّبب امرأة صابئية خرجت مِن دارها إلى النَّهر في اليوم الأول مِن السَّنة الجديدة؛ في الوقت الذي ينبغي أن يكون فيه جميع أفراد الصَّابئة داخل بيوتهم، فتعرض لها أعراب كانوا في أسطول من الزَّوارق راسٍ هناك، ونشب القتال، وأُعلنت الحرب على الصَّابئين، فذبح الكهان والرِّجال والنِّساء والأطفال، وبقيت الطَّائفة مهيضة وبلا كهان لعدة سنين»([27]).

أقول: ربما زادت هذه الحادثة في التَّمسك بالطَّقس الدِّيني، لأن عِلة عدم الخروج من الدَّار، في هذه المناسبة بالذات، هي تجنب الشَّر والنَّجاسات. هذا ما أبلغنا به الشَّيخ عبدالله الشَّيخ نجم، وهو يلقي اللوم على المرأة لأنها تخطت المحظور الدِّيني. وحسب عبدالحميد عبادة ودراوور أن الشَّيخ دِخَيِّل تعرض للتَّكفير عن خطيئة ارتكبها بتعميده 360 مرة، وذلك أنه أخطأ في عقد زواج لبتول تبيّن بعد ذلك أنها كانت ثيباً، فمات طقسياً، ورجال الدِّين الذين يشرفون على تعميده يأكلون من أجله كميت([28]).

قصة هذه الخطيئة كما رواها الشَّيخ نفسه لعبدالحميد عبادة: «أنه اعتمد على امرأة من أفراد عائلته للفحص على امرأة ليعقدها فأخبرته أنها باكر؛ وعقد لها، فذهبت إلى زوجها، وبعد مرور ستة أشهر ولدت ولداً تام الخلقة، فظهر مِن ذلك أنه عقد لها وهي ثيّب حامل، وبما أنه مِن درجة كنزبرا، علم أنه قد ارتكب خطيئة عظيمة، وذهب إلى العلماء الذين لا يقربونه نسباً، مِن علماء المحمرة وناصرية العجم (الأهواز) وغيرها، وأخبرهم بالقضية، فأمروه بإكثار التَّعميد، وأنه يبرأ مِن هذه الخطيئة فتعمد 360 مرةً على عدد الأشخاص السَّماويين».

خرق الشَّيخ دِخَيِّل ما اعتاد عليه الصَّابئة المندائيون مِن السُّكوت عن تجاوزات الآخرين في ما يخص الشأن الدِّيني؛ يوم تقدم لمقاضاة المؤرخ عبدالرَّزاق الحسني بسبب ما جاء في كتابه «الصَّابئون في ماضيهم وحاضرهم». ففي 11 يناير/ كانون الثَّاني 1931، فتح الشَّيخ كتاب «الكَنزا ربا» وقرأ أمام هيأة المحكمة ببغداد، باللسان المندائي (الآرامي الشَّرقي).

وكان الأب أنستاس الكرملي يترجم إلى العربية، وقد اقتنعت المحكمة أن المندائيين ليسوا عبدة كواكب ونجوم، بل يعبدون الحي الأزلي. قرأ الشَّيخ بوثات (آيات) مِن الكتاب الأول، تسبيح التَّوحيد. قيل تحقق ذلك أيضاً بتعاطف من قبل متصرف بغداد آنذاك أمين الخالص (ت 1965)([29])، والحاكم الأول لمحكمة الجزاء شهاب الدِّين الكيلاني مع قضية المندائيين تلك.

حصل أن اعتذر الحسني مِن الشَّيخ، ووعده ألا يعيد نشر الكتاب إلا بعد أخذ ملاحظات وتصويبات الشَّيخ، لكنه استمر في طبعه عدة طبعات، وحتى السَّبعينيات نجده كتب ما يسيء للمندائيين في مجلة «التُّراث الشعبي» مقالاً بعنوان «إذا مات الصبي»([30])، واضعاً فيه ما يدور بين العامة حول المندائيين، مِن أنهم يخنقون المحتضِر، بينما الصَّحيح أنهم يلبسونه الثِّياب الدِّينية، وهي الرِّسته، ويطهرون بدنه قبل الوفاة. لم يكشف للعامة طقوس الدِّين المندائي.

لم تحسب العامة، ولا المؤرخ عبدالرَّزاق الحسني، حساب خطورة الاعتقاد بمواطنيه المندائيين، فهو اتهام بالقتل. والسُّؤال إذا كان المندائيون يقتلون أو يخنقون المحتضِر فكيف لا

يتعرضون للعقوبة الجنائية؟! وكيف جرى المؤرخ الحسني خلف هذا الادعاء الباطل؟! معلوم أن قتل الرَّحمة لم يجز إلا في بعض الدُّول الأوروبية، وبحدود، وبعد نقاشات وصراعات حامية في البرلمانات، وهذا لا يجاز إلا بطلب المريض الشَّخصي، وفي حالة معاناته مِن قسوة الألم مع اليأس التَّام مِن شفائه!

خلاف ما قدمه الحسني من اعتذار للمندائيين وتعهده للشَّيخ دِخَيَّل، بعد المحكمة المذكورة، كتب في مجلة «الهلال» المصرية (مايو/ أيار 1932) قائلاً: «فتلقينا من ضجيج الصَّابئة وإنكارهم ما جرَّنا إلى المرافعات ومحاكمات طال أمدها، ولكنها انتهت بفشل المدّعين لعدم وجود مأخذ على ما كتبنا ونشرنا»([31]).

لكن الحسني، بعد أكثر من عشرين عاماً مِن تاريخ مقاضاته، كتب إلى الشَّيخ دِخَيَّل يقول: «إكراما لخاطركم، وحباً بدوام حسن العلاقة بيني وبينكم، لا سيما بعد أن اتضح بأني لا أريد إلا خدمة التَّاريخ وتحري الحقيقة...» (20 أكتوبر/ تشرين الأول 1957). وكانت وزارة المعارف، في عهد الوزير خليل كنة قد ردّت طلب عبدالرَّزاق الحسني، الذي عرض فيه شراء 205 نسخة مِن هذا الكتاب، وجاء في الرفض: «ذلك لعدم الإفادة منه في مؤساتنا الثَّقافية». لكن طلب شراء الكُتب نفذ في عهد الوزير منير القاضي([32]).

هاجر الشَّيخ دِخَيَّل إلى بغداد العام 1957، بعد أن نال عضوية مجلس بلدية الناصرية، بوصية مِن حاكمها البريطاني، وعضوية النَّادي العسكري، في ما بعد، بأمر من العقيد سلمان الركزلي آمر حامية النَّاصرية، جاء فيه: «نظراً لما يتمتع به الشَّيخ دِخَيَّل مِن مكانة دينية واجتماعية في العراق، ولواء المنتفك (النَّاصرية)، فقد اعتُبر عضو شرف في دار الضُّباط، وتوجه له دعوة مفتوحة في كلِّ المناسبات والاحتفالات لحضورها في لواء النَّاصرية»([33]).

توفي الشَّيخ دِخَيَّل ببغداد في 24 يونيو(حزيران) 1964، وبوصية منه دُفن في داره الكائنة بالدَّورة، جنوب بغداد، لتصبح بعد وفاته مزاراً لأبناء الطَّائفة، ولعله أول مرقد يظهره المندائيون لشيوخهم، فمن عوائدهم أن لا تبقى أهمية للقبر بعد 45 يوماً، وهي مدة العزاء، وتقديم اللوفاني (طعام الرَّحمة)، بعدها نُقلت الرُّفاة إلى مقبرة الطَّائفة بأبو غرَيَب، غربي بغداد. قلنا: الشَّيخ دِخَيَّل سليل ثمانية عشر جد كلهم مِن علماء الدِّين، بعضهم نال أعلى درجة دينية «ريشما»، أي رئيس أمة.

الرَّيش أمة عبدالله نجم

عبدالله بن نجم بن زهرون

الشَّيخ الرَّيشما

عبدالله بن نجم بن زهرون

الشَّيخ عبدالله بن نجم هو ريشما (رئيس أمة) الوحيد حالياً (كُتب هذا العام 2003 والشَّيخ توفي العام 2010)، ومنذ فترة بعيدة، لطائفة المندائيين، فبعد أن هلك معظم رجال الدِّين بوباء الكوليرا الكاسح، السَّنة 1831، تهيأ للشَّيخ عبدالله الشَّيخ بهرام الشَّيخ زهرون([34]) أن يتدرج إلى درجة ريشما، وبعده سنحت الفرصة للشَّيخ عبدالله نجم أن يقوم بتعميد أو تكريس سبعة رجال دين

بدرجة ترميذا، وهو بدرجة كنزبرا (مفسر كتاب الكَنزا ربا) ليصبح ريشما. ولد الشَّيخ عبدالله العام 1927، واسمه الدِّيني (الملواشة) رام يهانا بر سميت.

تحدر من قلعة صالح، الواقعة بين العمارة والبصرة، وتكرس رجل دين العام 1945 على يد والده كنزبرا نجم الشَّيخ زهرون.

عاش بالبصرة منذ العام 1955، ثم ارتحل عنها نهائياً إلى بغداد العام 1982. ورث التَّخصص الدِّيني مِن الجد الثَّامن عشر. ساعد والده في تعليم اللغة المندائية في نهاية الخمسينيات، بعد أن بدأت في العشرينيات بشكل منتظم على يد الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان. قيل عنه، وأكد هو شخصياً، أنه سهّل أمور متطلبات العبادة، ومنها استخدامه لماء الحنفية بالتَّعميد، كما سيرد ذكر ذلك.

قال المستشرق الألماني كورت رودولف حول جهود الشَّيخ عبدالله في تسهيل العبادة: «من المؤكد أن لدى الطَّائفة الآن رجل دين واحد بدرجة كنزبرا، وهو مندائي عصري في تفكيره، ولديه وضوح في شيء واحد، هو أن الطَّائفة سوف لا تستطيع الاستمرار إلا إذا تبنّت خطوات معيّنة لمعالجة الوضع»([35]). من فتاوى الشَّيخ عبدالله، إذا صحت العبارة، التَّأكيد على التَّعميد في الأحواض، وسمح بالتَّعميد الجماعي بدل التَّعميد الفردي، وربما للأمر علاقة بانفتاح الأجواء أمام المندائيين بعد زوال العهد العثماني، والاعتراف بهم على مستوى الدَّولة.

حمل الشَّيخ عبدالله العام (1990) الدرفش المندائي، أو راية يحيى، إلى البابا بالفاتيكان، وبحضرة الحبر الأعظم، قال: «منذ ألفي عام عَمّدَ يوحنا المعمدان السَّيد المسيح، وبعد ألفي عام يقلّد رئيس طائفة المندائيين البابا الدرفش»([36]).

أجابه البابا قائلاً: «بكثير من الغبطة أرحب برجل الدِّين الشَّيخ عبدالله الشَّيخ نجم، والأعضاء الآخرين في المجلس الرُّوحاني الأعلى للدِّيانة المندائية، في زيارتهم الأولى هذه للمقر البابوي المقدس، وهناك الكثير من نقاط الالتقاء بين دينكم والديانة المسيحية، فأنتم تؤمنون بالرب الواحد، خالق الكون».

«وإن التَّقدير الكبير الذي تكنّونه ليوحنا المعمدان، والشَّرف الذي تتمسكون به لشخصية المسيح، ابن خالة يوحنا المعمدان، هو سبب سروركم بأن تدعونا أبناء خالة، إذ أنتم أقارب البابا، إنه مبارك أن تأتي زيارتكم هذه خلال موسم عيد العنصرة، حينما يركز المسيحيون اهتمامهم في الصَّلاة على روح القدس... أنا سعيد أن أعرف عن طائفتكم الصَّغيرة، ولكن المتنامية في العراق وبعض البلدان الأخر، ففي طائفتكم تركزون على العائلة، وفي الوقت الحاضر حينما تواجه العائلة البشرية أخطاراً مختلفة، فأن التعاون في هذا الخصوص يكون مثمراً»([37]).

ليس صحيحاً ما جاء في كتاب «رجال الدِّين المندائيين» وعلى لسان وزير الأوقاف العراقي عبدالله فاضل: أن الصَّابئة لم يكن لديها اعتراف رسمي من قِبل الدَّولة قبل العام 1968. يرد هذا الادعاء ما ورد في الدَّليل العراقي (1936) حول المندائيين، والرَّسائل الرَّسمية الموجهة إلى الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان مِن وزارة العدل والدَّاخلية، وما سبقه من اعتراف فيهم في العهد البريطاني. لكنها الدُّول، كلُّ دولة منتصرة تُلغي ما قبلها، والقرآن يقول: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}([38]).

قصدت الشَّيخ عبدالله في داره بمانشستر شمال بريطانيا (أكتوبر/تشرين الأول 2002)، وجدته غاضباً من الصياغة العربية للكتاب المقدس، وقال بالحرف الواحد: إنه كفر وإلحاد وتشويه لكلام الله([39])، وسينزل الله غضبه على مَن شوّه كتابه،

ويقصد بذلك الطَّبعة التي صدرت ببغداد العام 2000. بينما وافق على الترجمة التي كانت عن نسخة المستشرق مارك ليدزبارسكي، وقال إنها جيدة وأمينة وتنقصها الصِّياغة فقط. وفي ما يخص الهجرة قال الشَّيخ: إن كل 300 سنة تحصل هجرة، ولم يبقَ غير ألمي دنهوره، أي عالم النُّور الأزلي.

سألت الشَّيخ عبدالله عن المفارقة بين أن يكون «الكَنزا ربَّا»، حسب العقيدة المندائية، منزلاً على آدم، وبين أن يُذكر فيه نبي المسيحيين ونبي الإسلام والمغول؛ أجاب بالقول: «نزل كتابنا على آدم بالتنبؤ للمستقبل، فليس هناك مِن ماضٍ قبل آدم، فهو أول البشر، وما يحدث في الدُّنيا، التي ستستمر بحدود الأربعمائة وثمانين ألفَ سنة، حسب كتابنا. إن الكتاب نزل باللغة الآرامية، فهي أول لغة نطق بها الإنسان».

أجابني الشَّيخ على استفساري عن تسمية المندائيين بالمسلمين في الأدعية والنُّصوص المندائية، قائلاً: «المسلم عندنا مَن سلمَ مِن الشَّرِ وسلمَ النَّاس منه، والسَّلام في ديننا مبدأ أساسي».

للسلام عندهم ملاك خاص يدعى شيشلام ربه، وحامل الدَّرفش، أي الرَّاية التي حملها يحيى، وأصبحت شعاراً أو علماً للدِّين المندائي، هي وغصن الزَّيتون المتدلي من فوقها.

طلبت من الشَّيخ عبدالله التَّهيؤ للصلاة أمامي، فباشر في حركات الوضوء، بداية من غسل الكفين والوجه، فانتهت الممارسة كما هي عند المسلمين تماماً، وأردف بالقول: «هكذا توضأ نوح وسام ويحيى».

لكن الشَّيخ في مانشستر لا يتوضأ بالماء الجاري في النَّهر، وإنما حلل رجال الدِّين الوضوء أو الرشامة بماء الحنفية، مثلما سبقت الإشارة، وقيل هو الذي بادر إلى الإفتاء بذلك، معللاً ذلك بالقول: «لم نأخذ الماء مباشرة مِن الحنفية، بل يجوز الوضوء فيه بعد أن يصب في حوض يتصل بحوض آخر فيصبح جارياً وصالحاً للاستخدام الدِّيني».

لكن الماء المقدس عند الشَّيخ يبقى «فراش زيوا» أي نهر الفرات النُّوري، أي الماء الجاري العذب. فمِن ألمٍ أخذ المندائيون بالبصرة يشكون مِن السُّلطات هناك، لأنها تتعمد إلى قطع الماء عن حوض مندٍيهم (معبدهم) في صلاتهم كلّ يوم أحد مِن أيام الأسبوع، وهو اليوم الذي يمارسون فيه طقوسهم.

الدِّين المندائي لا يقرُّ بتعدد الزوجات، ولا يمنع المرأة من تبوؤ مركز ديني. قال الشَّيخ عبدالله: نساء عديدات أصبحن ريشما، أي رئيسات أمة، كان ذلك قبل زمن يحيى. لكن هناك مَنْ يذكر اسم بيبي مدلل، زوجة ريشما عبدالله الشَّيخ بهرام الشَّيخ زهرون، آخر ريشما قبل الشَّيخ عبدالله بن نجم، والمولودة بحدود 1791 ناسخة الكتب المقدسة «ومن المعتقد أنها أصبحت كاهنة مع أخيها يهيا

بهرام وزوجها رام زهرون بعد حلول وباء الكوليرا عام 1831»([40])، وأن ترميداثه أو ترميدثا «رتبة دينية تمنح للنساء وتعادل الترميذا التي تمنح للرِّجال»([41]).

غير أن رجال دين تزوجوا بأكثر من واحدة، وبعضهم تزوّج خمس نساء، وقد سمعت رأي الشَّيخ، ربما الشَّخصي، أنه لا يجوز الجمع بين امرأتين([42])، ومَنْ تطلَّق مِن زوجها لا تعود له لأي عذر كان. وعن زواج الشيوخ بأكثر من امرأة مثل الشَّيخ دِخَيَّل بن عيدان (أربعة نساء) والشَّيخ عبدالله بن سام وغيرهما، قال إنه اجتهاد شخصي منهم!

بعد صدور الكتاب المُحقَّق مِن قبلي، وردتني عدة رسائل تعترض على هذا الرَّأي، وجدت مِن المفيد تضمينها هنا لعموم الفائدة. وتأتي في مقدمتها الرِّسالة التي أصدرها، تعليقاً على ما أوردته في هذا الفصل مِن الكتاب، جناب الكنزبرا ستار جبار الحلو، رئيس الطَّائفة حالياً ببغداد، ثم رسالة الشيخ رافد نجل الشَّيخ عبدالله نجم.

جاء في الرِّسالة الأُولى:

باسم الحي العظيم

أبناء النُّور الكرام

أثار استغرابي تجدد الجدل في موضوع كتاب المندائيين الأقدمين للأستاذ عبدالحميد، والمنقح من قبل الأستاذ الفاضل رشيد الخيون، والذي أثار حفيظتكم هو قول الشَّيخ عبدالله الشَّيخ نجم بأنه لا يجوز لرجل الدِّين الزَّواج مرة (امرأة) ثانية. إن هذا القول، مع احترامي لقائله، لا يوجد له سند ديني أو فقهي أوعرفي متوارث، ليس لرجل الدِّين فقط، وإنما حتى للمندائي العادي، ولا أعتقد أن الشَّيخ عبدالله أراد الانتقاص مِن مكانة المرحوم الشَّيخ دِخَيَّل، أو من مكانة المرحوم الشَّيخ عبدالله الشَّيخ سام شابق هطايي نهويلون، لذا فإني أرى أن إثارة هذا الموضوع، وبهذه الحدية أمر غير جيد، ويثير زوبعة مِن المواقف لسنا بحاجه لها، وتتجدد أحقاد وضغائن دفنت مع الماضي. نحن نريد أن نزرع لأجيالنا صورة مشرقة لرجال ديننا، ونتذكرهم بكل إجلال واحترام، وإن بدرت عند البعض منهم أخطاء، فليس هناك مَن هو معصوم عن الخطأ.

لذا فإني في الوقت الذي أقدّر المكانة العالية والسُّمعة الطَّيبة التي كسبها الشَّيخ دِخَيَّل والشَّيخ عبدالله الشَّيخ سام، من خلال ما يتمتعان به مِن صفات حميدة ومواقف مشهود لها، وعلم ديني كبير، وستبقى هذه السُّمعة لأجيال، لن نسمح مطلقاً بالتجاوز أو التَّطاول عليهما.

وكذلك لن نسمح مطلقاً بالتَّجاوز على الشَّيخ عبدالله الشَّيخ نجم، أو الانتقاص منه، أو من أي رجل دين آخر، ووصفهم بعبارات لا تليق بمقامهم، ولا يمكن أن تصدر من رجل مثقف مع الأسف. لذا أرجو مخلصاً الكف عن الخوض في هذا الأمر، واعتبار الموضوع منتهياً، ولكم مني خالص الاحترام والتَّقدير.

الحي العظيم يزكي عمل الخير والخيِّرين

بعدها وردتني رسالة مِن الصَّديق الشَّيخ ترميدا رافد الشَّيخ عبدالله نجم، وهذا نصها:

حضرة الدُّكتور الفاضل رشيد الخيُّون، زاده الله علماً

بعد إهداء التحية

منذ مدة سنة تقريباً تكلمتُ مع الوالد الطَّيب الذِّكر المرحوم الرّيش إمه عبدالله الكنزي برا نجم، بخصوص ما ذُكر من قبله في الطَّبعة الجديدة لكتاب «مندائي أو الصَّابئة الأقدمون» تأليف عبدالحميد عبادة، تقديم وتحقيق جنابكم الكريم العام 2003. وبعد الدَّرس والمتابعة في الكتب المندائية والحديث الطَّويل بيننا بخصوص ما ورد في صفحة 35 من الكتاب، طلب مني شخصياً أن أتصل بك، وأبلغك رأيه النهائي في موضوع تعدد الزَّوجات، فقال: «إن موضوع الزَّواج بأكثر مِن واحدة في الدِّيانة المندائية لم يرد تحريمه أو تحليله، وعليه يعتبر حلالاً، ولكن بأسباب موجبة لذلك».

لذلك أرجو من الدُّكتور الباحث رشيد الخيون أن يرفع ما ذُكر بتلك الصفحة بهذا الخصوص في الطَّبعات القادمة، ويثبت ما ذكر أعلاه، وهذا هو طلب المرحوم الرّيش أُمه عبدالله الكنزي برا نجم قبل وفاته.

والحي العظيم شاهد على ذلك، وهو وليّ الصواب والتوفيق.

المخلص الأمين

الربي رافد الرّيش إمه عبدالله الكنزي برا نجم السَّبتي

رئيس الدِّيانة المندائية في هولندا (4 نوفمبر 2010)

هناك أمور كثيرة أوجدها رجال الدِّين لحاجة ماسة، مثلهم مثل فقهاء الأديان الأُخر، مثلاً، حسب الشَّيخ عبدالله: كان المندائيون يقرون ذبح السَّمك، لأنه يُصطاد حياً ومباشرة مِن المياه الجارية، أما الآن فالسَّمك يباع ميتاً خارج الماء، فتقرر منذ زمن بعيد التَّخلي عن هذه الشّعيرة. وحرم المندائيون لحم العجول، لا لعلة في لحم البقر وإنما لصعوبة ذبحها بالطَّريقة المندائية الصحيحة. وحرموا ذبح الأنثى لأنها سبب الحياة والتَّكاثر لجنسها، وحرموا ذبح صغير الحيوان وغير السَّليم من الحيوانات.

سألت الشَّيخ عن الميراث، وسبب عدم وجود نص يعالج هذه المسألة الهامة، قال: نعم، لا يوجد أي نص مندائي خاص بالميراث أو الوصية، والسَّبب أن العقيدة المندائية عقيدة تقر الزُّهد، لا تؤمن بالمال والنُّقود، ولا الذَّهب، ولا الفضة، ولا أي ملك مِن الأملاك الدُّنيوية. بيد أن الظُّروف تغيّرت، ولا يمكن وضع شيء جديد في الدِّين مثل تشريع في الميراث، لذا تحل هذه القضية عبر قوانين الدَّولة التي نحن فيها.

إن هذا الميل الصوفي ليس لدى المندائيين فقط، وإنما ظهر عند جماعات أُخر، منها الأسينيون، وهم جماعة كانت تعيش حياة الزهد([43]).

قرأ لي الشَّيخ مِن الكَنزا ربَّا، النّسخة الآرامية، وحسبَ عمر الدُّنيا منذ آدم وحتى نهايتها بالنَّار، فالأرض دمرت عدة مرات خلال الحياة البشرية، مرة بالماء وأخرى بالنار، وبالنتيجة

سيعود البشر إلى الدِّين المندائي، بعد أن انحسر وانتهى، وظل النَّبي زكريا يحمله بالباطن تقية مِن اليهود، فأمره الله أن يكون له ولد فكان يحيى مِن نطفة إلهية، أتت سابحة في الماء الجاري، علقت برحم اليصابات (إليزابيث) أو أنشبي، بعد أن بلغت وبلغ زكريا مِن العمر عتياً، فجدد يحيى المندائية وعمّد المندائيين، ووضع أُصول الدِّين، وحط من عدد فروض الصَّلاة، فكانت خمسة وأصبحت ثلاثة.

صور «الكَنزا ربَّا» مشهد نهاية العالم أو الدُّنيا كالتالي: «يحرر يوياثين العجوز الكبير من قيوده طليقاً، إن سمك شفة فمه يساوي 144000 ميلاً، وهو يفتح فمه ويبتلع الأرض اره تيبل، ويبلغ الكواكب السَّبعة مع ملوكها الأثني عشر ومسيريها الخمسة، وكذلك الهمورثا والملائكة، وأرواح المذبح والعفاريت، والديفي والليليثا وجميع الأرواح التي وجدت مذنبة أثناء التحقيق في يوم الحساب. تلك التي أنكرت الحياة الأولى، أنها سوف تقطع (تنقطع) في الظُّلمات، ثم يطبق فمه فيموت الجميع نتيجة لذلك، ويأخذ نهايته في بطنه العبل فترتفع رائحته الخانقة من تيبل إلى علٍ»([44]).

بعد مشهد نهاية الدُّنيا في فم الكائن الرَّهيب يوياثين، يتشكل العالم الآخر، عالم البقاء، عالم مشوني كشطا، مع ضمان عدم خلق دنيا أخرى يحيطها الشِّر والفساد، وهذا يذكر باعتراض إبليس على خلق البشر. جاء في الكتاب: «ثم تأتي جميع أثري أرض النُّور هابطة وتجتمع في طرف هذا العالم، وتبدأ بالكلام قائلة: هكذا سوف يصعد على الرَّائحة العفنة كل مَنْ يفكر بأن يخلق عالماً يشبه هذا العالم الذي كان بثاهيل قد خلقه. أما هذا العالم فسوف يدوم ويعمر ألوفاً مؤلفة من السِّنين».

«هذا العالم يدعى عالم البهاء والنُّور. كل أرواح (نيشماتا) الرجال الأفذاذ الذين اعترفوا بالحياة الأولى سوف لن تكون مذنبة، ولن يصدر عليها حكم المحكمة بأن تموت موتاً ثانياً. إن أرواح (نيشماتا) هؤلاء الرجال سوف تعيش هنا وتحيا. الحياة للحكماء العارفين، الحياة للعلماء المدركين، الحياة لأولئك الذين يعطون إيانا المعرفة. إن الحياة منتصرة على جميع الأعمال إلى أبد الآبدين»([45]).

سمعتُ مِن الشَّيخ عبدالله أن المندائيين أتوا من جزيرة سندريب([46]) وهي سيلان اليوم، وصلوا العراق بسفينة سام بن نوح. وسندريب، وهي الجزيرة نفسها، حسب الأسطورة العربية، اسم لجبل هبط عليه آدم، وهو «همزة وصل بين السَّماء والأرض»([47]).

وصفه أبو زكريا القزويني (ت 682هـ) بقوله: «بأعلى الصِّين في بحر الهركند، ذاهب في السَّماء، يراه البحريون مِن مسافة أيام، وفيه أثر قدم آدم (ع، م) مغموسة في الحجر، ويُرى في هذا الجبل كلّ ليلة كهيئة البرق من غير سحاب، ولا بد له في كلِّ يوم من مطر يغسل موضع قدم آدم عليه السَّلام. ويقال إن الياقوت الأحمر يوجد على هذا الجبل تحدره السّيول والأمطار إلى الحضيض، ويوجد به الماس أيضاً، وبه يوجد العود»([48]).

ما يربط المندائيين بهذه الرِّواية هو وجود آدم، نبيّهم الأول، وما زادوا عليها أن سفينة سام بن نوح حملتهم إلى مواطنهم الحالية. ويبقى التَّداخل ملحوظاً بين الرِّواية المندائية والإسلامية، فأرض النُّور المندائية، الألمه دنهورا ومنها المشوني كشطا، تظهر من أعجب عجائب المخلوقات في

الأدب الإسلامي، وهي حسب القزويني: «إن لله تعالى أرضاً بيضاء مسيرة الشَّمس فيها ثلاثون يوماً، محشوة خلقاً مِن خلق الله تعالى، لا يعلمون أن الله تعالى يُعصى طرفة عين»([49]).

إن للقطب الشِّمالي حيث يتجه المندائيون في صلاتهم نحوه، كرامات في الأدب الإسلامي، فالأرمد الناظر إليه يوم الأحد، وهو اليوم المقدس عند المندائيين، يشفى من الرمد، وهو يشفي الأسود والدِّببة والنُّمور من أمراضها([50]).

من أهم أُصول الدِّين المندائي أنه يدعو إلى السَّلام في كل الأحوال، وحسب الشَّيخ عبدالله أنه لا يجوز القتل وإن كان دفاعاً عن النَّفس، لأن الاعتداء لا يحدث إلا بسبب التَّحرش، فعلى المندائي أن يتجنب هذه الأسباب. وعندما ذكرته بكارثة المندائيين بالعمارة على يد ملاحين تحرشوا بامرأة خرجت أثناء ساعات الكرصة إلى جرف النَّهر لجلب الماء، وسببت بقتل رجال الدِّين وكثير من المندائيين، قال الشَّيخ: لماذا خرجت، والخروج في مثل هذا اليوم يجلب الشَّرَّ؟

ختم الشَّيخ كلامه بالقول: نحن دين مسالم، لا نكره الآخرين، بل لا نكره ولا نقف ضد مَنْ لا دين لهم، وإن البشر سيعودون مندائيين في النِّهاية بأمر الله، لا بسعي وحرب وجبر. يعاني الشَّيخ من وحشة المكان وغربته، ولا يتصل بولده الذي يعيش بنفس المنطقة لأنه متزوج مِن امرأة أجنبية، غير مندائية، لكنه كثير الود والإعجاب بولده الشَّيخ رافد الذي يعيش بهولندا، ووصل إلى درجة الترميذا في الدِّين المندائي.

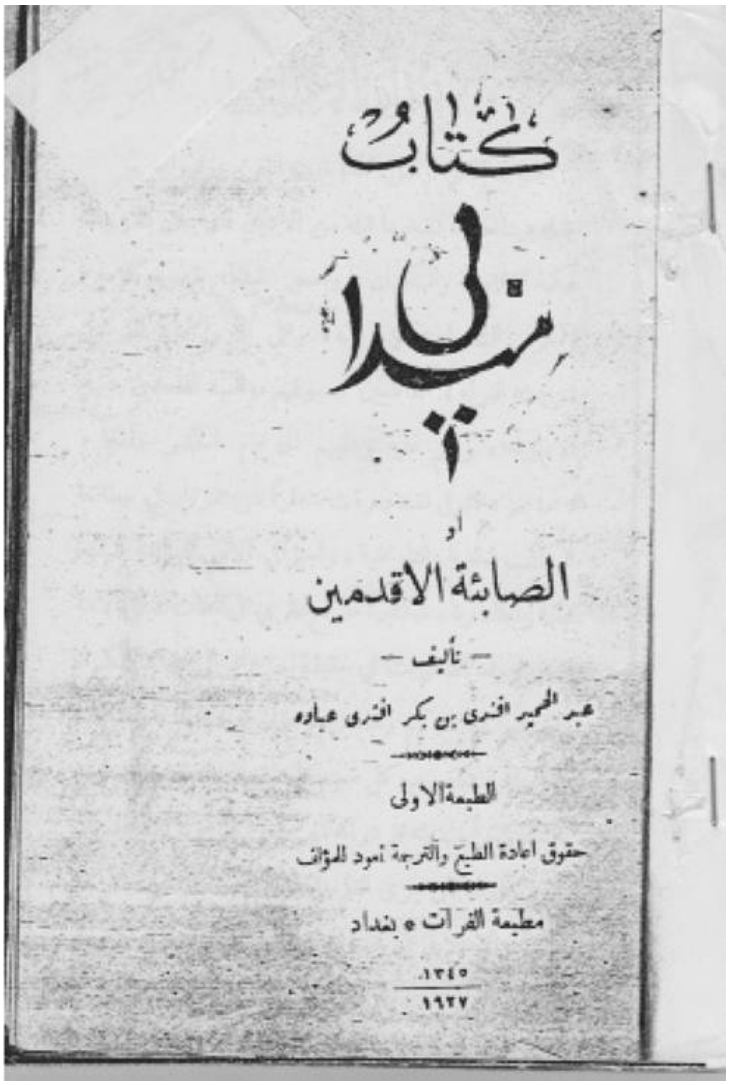

غلاف طبعة الكتاب القديمة

مقدمة المؤلف

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله الذي أرسل محمداً بدينه القويم، وصراطه المستقيم، فجعله ديناً حنيفاً، نسخ ما قبله من الأديان، وأبطل بشريعته حكمة الفلاسفة والكهان، وأعجز البلغاء بفصيح كلامه، وأخرس الشُّعراء بمحكم فرقانه، والصَّلاة عليه، وعلى آله وأصحابه المؤيدين شريعته الغراء، القاطعين بسيوفهم رقاب الملحدين ذوي الامتراء، والصلاة عليه إلى يوم الحشر واللقاء.

أما بعد، فأقول لقد صرفت شطراً مِن عمري في مطالعة الكتب العلمية والتَّاريخية، وأحوال الأمم السالفة، البائدة منها والحاضرة، فكثيراً ما وقع نظري على أبحاث تتعلق بالأمة الصَّابئة، وقد اضطربت في حقيقة أمرهم أقوال علمائنا الكرام، واختلفوا في نسبتهم وعنصرهم وعقائدهم الدِّينية، وعوائدهم الاجتماعية، فضرب كل منهم على وتيرة جادت بها مفكرته، وبعضهم مَنْ مسك قلم دواته معي عن الخوض في هذا المسلك الوعر.

وقد قال: جرى القلم وأغلق الباب، اشتقت (مع)([51]) من اشتقاق الإطلاع على هذا الدِّين الخفي المحجوب عن الأبصار إدراك حقائقه، والوقوف على أصول أوامره ونواهيه، ولما ساقني القدر للسكنى في بلدة الناصرية قاعدة لواء المنتفك، وقد سكنها كثير من أهل هذه الملّة، صرت أتردد مدة طويلة إلى حانوت أحد قساوستهم في اليوم مرة أو مرتين عند الفراغ من الأشغال الدُّنيوية والأعمال الدِّينية، ألقي عليه أسئلة تسنح لي أحياناً، فلم أره كفوءاً لإعطاء الجواب الشافي عليها، فاسترشدته للحصول على عالم روحاني آخر أعلم منه، وأعلى درجة، وأكثر اطلاعاً في الأمور التشريعية.

وجدت ضالتي لدى عالم أرشدني إليه، وبعد مصاحبته، أبنتُ له رغبتي الآنفة البيان، وذكرت له صلة الصَّابئة بالإسلام، وتقدير علمائنا لهم، فأطلعته على ترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابئ، وحفيده أبي الحسن هلال بن الحسن، وغرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال الصَّابئ. ولما أكمل قراءته مزج فرحه بغيض وحنق خفيفين للمدح والثَّناء عليهم ولإسلام أحدهم، هلال. وعدني الإجابة عن كلّ سؤال أسأله منه على الوجه الصَّحيح، وأساس الشَّريعة الصَّابئية. فصرت أتردد إلى داره عصر يومي الجمعة والأحد، وأعرض عليه الأسئلة التي أستحضرها إليه.

قال لي: إن من عوائدهم الدِّينية أن لا يجيبوا سائلاً ما، لأنه يقصد به الاستهزاء، وهو محرم عليهم. كنت أناقشه على أجوبته بصورة لينة إقرارية لا إنكارية خشية عدم الإجابة. فعليها وعلى الاقتباس من الكتب بعد عرضها عليه لتصديق صحتها، وفقت لجمع ما ستراه إن شاء الله.

أخي، ليس القصد من جمع شتات هذه المسائل تثبيت دينهم، كما خطر للإمام ابن حنبل، رضي الله عنه، حيث قال للإمام الزَّاهد الحارث المحاسبي([52]) حينما أخذ يكتب رداً على الماديين والنَّظر في كتب الكلام، وقد ترك الإمام صحبته. غير أني قصدت بذلك الإطلاع على أساس هذا الدِّين، إذ إن الرَّجل لا يعرف فضل دينه إلا وأن يعلم شرائع الأمم السَّائرة، والفضيلة العظماء، والمقام الأسمى لديننا الحنيف، الذي ما جعل شارعه فيه علينا مِن حرج وصعوبة كما شهدت به هذه الأمة وغيرها بكماله وفضيلته عليها.

تنبيه: المراد بالشَّيخ الذي سأنوّه عنه هو الشَّيخ الصَّابئي المسؤول منه.

الفصل الأول: مندائي أو الصَّابئة الأقدمون

لقد اختُلف في سبب تسميتهم بالصَّابئة، وهل هذه الكلمة عربية، فإن كانت عربية فاشتقاقها مِن صبأ. قال في مختار الصَّحاح: صبأ إذا خرج مِن دين إلى دين، وبابه خضع، وصبا أيضاً إذا صار صابئاً، والصَّابئون جنس مِن أهل الكتاب([53]).

وجاء في القاموس مثله، حيث قال: إن صبأ بمعنى مال عن الحق([54]). وقالوا: إنها كلمة سريانية([55]) معناها الغسل والوضوء، ولها مناسبة معهم، وأن أصل تسميتهم مندائي أي قديم([56]).

أما تسميتهم بالصَّابئة، فلوجود ذكرهم في القرآن المجيد في ثلاثة مواقع: في سورة البقرة والمائدة والحج، فأدخلوا أنفسهم مع أهل الكتاب، وليسوا منهم([57]).

الفصل الثَّاني: هل هم عبدة نجوم؟!

واختلاف أقوال علمائنا في ديانتهم

قال الفيروزأبادي في القاموس: «يزعمون أنهم على دين نوح عليه السَّلام، وقبلتهم من مهب الشَّمال عند منتصف النَّهار»([58]).

وقال الزَّمخشري: «هم قوم عدلوا عن دين النَّصارى واليهود، وعبدوا الكواكب»([59]).

وقال الشَّهرستاني في كتاب الملل والنَّحل: «إنهم قوم كانوا على عهد إبراهيم الخليل (ع، م)، وكانوا يقولون إنا نحتاج في معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه جل شأنه إلى متوسط روحاني وجسماني([60])، ومدار مذهبهم التَّعصب للرُّوحانيات، وكانوا يعظمونها غاية التَّعظيم، ويقتربون إليها، ولم

يتيسّر لهم التَّقرب إلى أعيانها والتَّلقي منها بذاتها، فزعت جماعة منهم إلى هياكلها وهي السَّبع السَّيارات، وبعض الثَّوابت».

وقال العلامة جلال الدِّين عبدالرَّحمن السَّيوطي، في كتابه «حسن المحاضرة»، إن النَّبي إدريس (ع، م) دعا الخلق إلى الله تعالى فأجابوه، وكانت عقيدته الصَّابئة، وهي توحيد الله تعالى والطَّهارة والصَّوم وغير ذلك([61]). فقوله هذا يؤيد قول مَنْ قال إنهم منسوبون إلى صابئ بن متوشلخ بن إدريس، عليه السلام.

وقال العلامة البيضاوي في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابئين}([62]) إنهم «قوم بين النَّصارى والمجوس»([63]). وقال أيضاً: إنهم عبدوا الملائكة، وقيل عبدة الكواكب([64]).

وقال الشَّهاب الآلوسي([65])، في «روح المعاني» عند تفسير هذه الآية([66])، وقد وصفهم بما وصفهم الشَّهرستاني، وزاد قائلاً: والإمام

أبو حنيفة يقول: «إنهم ليسوا بعبدة أوثان، وإنما يعظمون النُّجوم كما نعظم الكعبة». وقيل: «هم موحدون يعتقدون تأثير النجوم»([67]).

الفصل الثَّالث: طوائف الصَّابئة الأقدمين

تنقسم الصَّابئة إلى طوائف عديدة منها:

الكاظمة([68]): وينتسبون إلى كاظم بن ترح، أخي إبراهيم الخليل (ع، م)، ومِن قوله: إن الحق بين شريعة إدريس وشريعة نوح وشريعة إبراهيم الخليل.

البيدانية: وينتسبون إلى بيدان الأصغر، وقوله باعتقاد نبوة مَنْ يفهم عالم الأرواح، وأن النبوة من الأسرار الإلهية.

القنطارية: وينتسبون إلى قنطار بن ارفكشاد، وإنهم يقرون بنبوة نوح عليه السلام.

ومنهم:

الحرانية: نسبة إلى بلدة حران، المدينة التي بناها هاران أخو إبراهيم الخليل، وسنذكر ذلك مفصلاً في محله. وإنهم يقولون: المعبود واحد بالذات، وكثير من الأشخاص في رأي العين، وهي المدبرات السبع من الكواكب، والأرضية الجزئية والعالمة الفاضلة، فإنها يظهر بها ويتشخص بأشخاصها، ولا تبطل وحدته في ذاته.

ثم بواسطة الحروب الدَّائرة في زمن ارادون ملكه، تفرقت طوائفهم إلى ستين فرقة، وتشتت هذه أيضاً، ولم يبقَ منها اليوم إلا أربع عشرة طائفة وهي:

مندوي، والشَّيخ من هذه الطَّائفة([69])، وصابور، وريش ادراز([70])، كيان أهواره([71])، عسيكر، كحيلي، عزيز كيناني دراجي، بهير([72])، نبكاني([73])، فريحي. وقد وجد الشَّيخ المذكور هذه الطَّوائف مسطورة في كتابي الكنزه الكبيرة، وادرافشة يهيا([74]). وبقيت أربع لم يعثر عليها، وهذه الطَّوائف المارة الذكر موجودة اليوم، وأكثرها رجالاً مندوي وصابور.

هل هم كلدانيون أم سريانيون؟

قال البعض من المؤرخين إنهم من الكلدان، وهم أول مَنْ سجد للأصنام، وقد فعل ذلك لهم نينوى بن نمرود بن نوح، ملك الآشوريين، وباني مدينة نينوى، وذلك سنة 2059 قبل الميلاد، وأمر النَّاس بعبادته، فاقتدت الصَّابئة بهم.

وقال البعض إنهم مِن السِّريان، وقد تعربوا بعد الفتح، وحافظوا على لغتهم وعوائدهم الدِّينية. أما لغتهم، فيزعمون أنها سريانية([75])، وقد قرأ لي الشَّيخ بعض الكتب المقدسة، فرأيت الكلام مشوباً بعربية وفارسية وغيرهما، وإني لا أعرف حقيقتها لجهلي بها، وهذه حروفهم الهجائية، ويسمون مجموعها الألفية ومندائي.

الفصل الرَّابع: مساكنهم القديمة

كانت الصَّابئة في مبدأ أمرها تسكن مدينة حران. قال الشَّيخ: ويسمونها «حران سفلايي» أي حران السُّفلى. قال في المعجم لياقوت: «هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرَّها يوم، وبين الرِّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشَّام والرُّوم، قيل سميت بهاران أخي إبراهيم (ع. م)، لأنه أول مَنْ بناها، فعُرِّبت فقيل حران»([76]).

وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطَّوفان، وكانت منازل الصَّابئة، وهم الحرانيون الذين يذكرهم أصحاب كتب الملل والنحل. قال المفسرون في قوله تعالى {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}([77]): أراد حران.

وقالوا في قوله تعالى {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ }([78]): هي حران. ومن منازلهم قرية تابعة لحران تسمى «ترع عوز»([79])، العينان مهملتان والواو ساكنة، قرية مشهورة بحران من أبناء الصَّابئة.

كان لهم هيكل، وكانوا يبنون الهياكل على أسماء الكواكب، وكان الهيكل الذي بهذه القرية باسم الزُّهرة، ومعنى ترعوز بلغة الصَّابئة باب الزُّهرة. وأهل حران في زماننا يسمونها «ترعوز »، وينسبون إليها نوعاً من القثاء([80]) عذباً يزرعونه بها.

قال الشَّيخ: وقد جرت محاربات عنيفة مع أهل حران، ففروا إلى طور ماداي([81])، فسكنوها، وقال أيضاً: ومِن مساكنهم القديمة «طيب ماثة»، ويعرفه بجبل والى بشت كو (أي جبل حسين قولى خان)، حيث أنهم عثروا فيه على آثار قديمة مكنوزة تعود لملتهم.

وقد جاء ذكر ذلك في كتاب «النُّفوس» مِن كتبهم المقدسة. وقال البعض منهم: ومن مساكنهم «مندلجين» (مندلي)، قال: كان فيها ما يقارب مِن أربعين كنيسة([82])، وقد ذهبت([83]) حينما وقعت بأيدي المسلمين.

وقال الآخر: إنهم كانوا في مصر، وقتلهم المصريون، فخرجوا منها فارين إلى البلاد الفارسية، وقتلهم الفارسيون، وجاءوا إلى العراق فسكنوه حتى اليوم، ولذلك تجد في لغتهم الفارسية والعربية.

وقد سكنوا اليوم محال كثيرة كناصرية المنتفك، والعمارة، والبصرة، وسوق الشيوخ، وكَرمة بني سعيد، والجبايش، والمحمرة، والأهواز، وناصرية العجم. وقليل منهم في بغداد سكنوها بعد الاحتلال البريطاني.

ويبلغ عدد رجالهم جميعاً خمسة آلاف رجل. غير أن الحسد والنِّفاق، والبغض والشِّقاق، قائم بينهم على قدم وساق، وقليل منهم منوّر الفكر محب للعلوم والحضارة والمدنية، وإنهم باقون على ما هم عليه مِن الفطرة البشرية.

الفصل الخامس: كتبهم المقدسة

لقد أطلعني الشَّيخ على بعض الكتب المقدسة، وهي: «الكَنزه ربا»، وهو كتاب منزل من «المي دنهوره»، أي عالم الأنوار، يشتمل على ذكر تاريخ مبدأ الخلقة البشرية إلى منتهاها، مخطوط بالسريانية([84]) قديم، ومعنى الكنزة الحاوي([85]). وآخر اسمه «ادرافشه يهيا»([86])، أي أقوال يحيى (ع. م)، وهو يتضمن سيرته ومواعظه الدِّينية، ومحللاته ومحرماته، وخلاص النَّفس وسعادتها الأخروية، وفيه بحث في النُّجوم والكواكب، وبه يتفألون لمن يطلب ذلك.

وقد قرأ عليَّ بعضاً من مباحثه، سأذكرها في محلها، وهو كتاب سرياني([87]) مخطوط، وآخر اسمه «كتاب النُّفوس» منقسم ثلثاه إلى الصَّلاة والعبادات، والثُّلث الآخر يتعلق بأحوال الأموات، وهو سرياني([88]) العبارة مخطوط.

وهذه الكتب كلها منزلة على آدم أبي البشر (ع. م) إلا كتاب دارافشه يهيا([89]) فأنه ترجمة يحيى (ع. م). وأنهم على كتبهم حريصون جداً، لا يتمكن الشَّخص مِن اقتنائها والتَّوصل لحيازتها، ولو عمل مِن الحيل والخدع ما عمل، وربما يوجد غير ما ذكرناه لم يتيسر لنا الإطلاع عليه. ويوجد عندي مِن كتبهم كتاب يسمى «انياني» وهو سرياني([90]) العبارة مخطوط ناقص مِن أوله ومِن آخره، ويظهر مِن شكله أنه قديم.

الفصل السَّادس: اعتقاد الصَّابئة

في الله جل جلاله وأسمائه المقدسة

تعتقد الصَّابئة في الله جل جلاله أنه علّة الكائنات والوجود، حي بنفسه أزلي أبدي لا تدركه الأبصار ولا تناله الحواس، منزه عن الهيولى. ويليه في المنزلة الإلهية ثلاثمائة وستون شخصاً، جاءوا إلى العالم ليفعلوا الأفعال الإلهية، وليسوا بآلهة، ولم يكونوا داخلين في عداد القديسين، لأنهم ليسوا مِن البشر، ولا من الملائكة([91])، ولم يخلقوا كسائر المخلوقات.

ولكن الله نادى كل واحد منهم باسمه جهراً، فكان مِن تلقاء نفسه. ولهم أزواج مثلهم منهم، وأولاد لم يحصلوا مِن النِّكاح بل مِن الكلام، فإذا تكلم أحدهم مع زوجته حملت فولدت، وأن هؤلاء الأشخاص متفاوتون في الدَّرجة، وأنهم موظفون بوظائف روحانية كمباشرة أعمال الخلق، وأنهم يعلمون المغيبات، وقد تولى كل منهم مملكة.

أما أسماؤهم التي علمت فمنها «ماردريبوثه»([92]) وهو زعيم الأشخاص المذكورين، ثم يليه «هيبل زيوه»([93])، و«شيشلام ربه»([94]) و«وهو شي ناته»([95]) و«منداديهي»([96]) و«سام زيوه ادهييه»([97])، وهو موكل بالشَّمس، و«هبشبه أو هوشابه»([98])، وهو صاحب يوم الأحد، و«سيماث هيا»([99]) وهي أنثى، و«مهزيون ملاله»([100]) وهي شجرة ترضع أولاد الصَّابئة عند الممات، و«أباثر اما»([101])، و«اثباهيل برزاهرييل»([102]) (وبر كلمة سريانية بمعنى ابن)، ويحيى (ع. م)،

و«بهرم زيوه»([103]). هذا ما علمته من الأشخاص المذكورين، ولكل شخص منهم وظيفة تخصه.

أما أسماؤه جل جلاله فهي: «مار هي» أي ربي الحي، و«ادليثلي هبره ابتاغي» أي ليس مثله بتاجه، و«لا شوتاقه بشلطاني»، ولا شريك بسلطانه، و«ملك راما دنهوره» أي الملك المعالي النوراني، و«ربى قدمايي»([104])، أي الرَّبّ القديم.

الفصَّل السِّابع: اعتقادهم في بدءِ الخلقِ

لقد علمت مَنْ هو «مارادريبوثه»([105]) وأتباعه. فقد قال الصَّابئون: إن أول كائن في الوجود هو هذا (مارادريبوثه) واتباعه المذكورون. قال له أتباعه ذات يوم: هل هذا هو الخلق، أم سيحدث غيره؟! فقال لهم: هذا مِن الأُمور الرَّبانية، ولا يمكن الجواب عليه. قال لهم: أرى أن نذهب إلى الله لنعلم ذلك، فامتنعوا مِن الذِّهاب لصعوبة المسير، وبعد المسافة بين العالم الرَّباني وعالمهم، ولو أنهم يقطعون في السَّاعة اثني عشر يوماً.

عندئذ دعى مارادريبوثه ربه وساروا، حتى أعيوا في مسيرهم فأدركتهم العناية، ولمع نور فغشيهم، وخرّوا ساجدين وبث فيهم قوته الصَّمدانية([106])، ومد يده إلى «مارادريبوثه»، فنهض من سقوطه ونهضوا، وإنهم يرون في جوانبهم نوراً ساطعاً، وذهب ما كان منه مندهشين.

بدأوا يحدثون الله، وفي مقدمتهم زعيمهم، فبينوا للرب سبب مجيئهم، وهو هل في نيته أحداث عالم جديد.

فقال الله مخاطباً «ماردريبوثه» بالذَّات، وإياهم بالعرَض، أنه ينوي ذلك، وسيعهده إلى «ماردريبوثه» يتولى خلقه، فأمره الرَّبُّ أن يرسل «هيفل زيوه»([107]) إلى «عالمي دلحه شوخوا»([108])، ويرى هناك امرأة تدعى «روحايا»([109])، متزوجة بابن عمها «كارافيون»([110])، وهي حاملة، وسيأتي بها إليك فتضع ولداً يسمى «أور»([111])، وهذا يكون مرصداً لحمل العالم الجديد على رأسه، فإذا بلغ سنه تشرع في أعمال الخلق الجديد، وتبعث «أوردود »([112]) إلى «شوى»([113]).

فتستحضر منها سبع حفنات مِن التُّراب، وأخذ الأولى وهي مِن الحديد، فتضعها في الماء، فتكون أرضاً مِن حديد، وتجعلها قصراً إلى «قدمي أور»، ثم تأخذ باقي الحفنات فتخلق منها أَرضين، وتضعهن على رأس أور، وكل واحدة منها تكون مركبة مِن المعدن الذي أخذت منه، فإذا أكملت هذه الأرضين تبدأ في خلق السَّموات، وتعمل أربعة محابس (جمع محبس) للرِّياح تضعها في أربعة جهات.

وأن تعمل سبع «متروثات» أي جحما([114]) للتعذيب، يكون مدار شؤونها بواسطة موظفين من قبلك على الهواء والجحيم. ويكون تدبير كل واحدة إلى سيارة مِن السَّيارات السَّبع، ولهم أيضاً أعمال أُخر كأحداث الرَّعد والبرق والمطر والشَّمس للنَّهار، والقمر للَّيل.

وأن تخلق «مشوني كشطه»([115]) أي العالم السِّري، وأن تأخذ مِن آلمي ديناهيل»([116]) رجلين وامرأتين، فتجعلهما فيه، وتزوّج أحدهما الآخر، وهم يسكنون هذا العالم مع ذريتهم فيه، وتخلق «آدم كفره قدمايه»([117])، ثم تقيم في حدود «المتروثات»([118])، وتتولى تدبير العوالم التي خلقتهن.

عمل ذلك «هيبل زيوا»([119]) بما أمر، ورسم له «مارادييبوثه» بعدما أمر الله بهاء «مارادييبوثه»، وقد قام بعد ذلك في حدود المتروثات. وعلم مما سبق أنه خلق في اعتقادهم عالمين: عالماً سريّاً وهو «مشوني كشطه»، وهذا العالم مستور.

والثاني هو عالم «ارثيقل»([120])، أي الأرض المشتراة وهو دون الأَول، ولكلِّ هذين العالمين آدم، فآدم العالم السِّري يدعى «آدم كسيا»([121])، أي آدم غير المنظور وزوجته «كانات»([122]) أي الجميلة الفائقة، و «آدم كوره قدماي»، وهو أبو البشر، أي آدم القديم وزوجته حواء. أما أهل العالم المستور فكلهم صابئة. هذه قصة مما يحرصون على سترها وعدم إبدائها لكل أحد، نقلتها عن بعض المجلات، وأقرَّ بصحتها الشَّيخ([123]).

الفصل الثَّامن: عمر الدنيا (587309) سنة([124])

هذا بحث مفصل ترجمه الشَّيخ مِن كتاب «الكَنزه» يحوي عمر الدُّنيا، وما مضى عليها مِن الزَّمن، وما سيأتي في المستقبل مرتّب على أَزمنة الملوك والوقائع الكبرى. وهذا البحث أخبر به الرَّبُّ آدمَ، وهو أخبر به تلامذته: بعث الله آدم وزوجته حواء فتناسلا، وانتشر أولادهما في العالي، ثم انقطعوا بسبب الحروب والموت، ولم يسلم منهم إلا رجل كان يدعى «رام» وأمرته تدعى «رود ».

وكان ذلك بعد مرور مائتين وستة عشر ألف سنة (216000) مِن خليقة آدم وظهوره إلى عالم الدُّنيا حتى زمن «رام» وزوجته «رود». فمِن هذا الرَّجل والمرأة انتشر خلق كثير، وبسبب الحرق بالنَّار، التي شبّت في أقطار العالم، انقطعوا، ولم يسلم منهم سوى رجل يدعى «شربى» وامرأته تدعى «شرهبيل»، وامتد زمن تناسل أولاد رام (150000)([125]) مائة وخمسين ألف سنة. ثم تناسل أولاد شربى وشرهبيل([126]) وعاشوا في الدُّنيا مع أولادهم ونسلهم (100000) مائة ألف سنة.

فجاء الطَّوفان، فكان عمر الدنيا من مبدأ الخليقة إلى ظهور الطَّوفان (466000) أربعمائة وستة وستين ألف سنة، فعمل نوح السَّفينة ونجا مِن الغرق هو وأولاده، وأكبرهم سام، فبقيت الدُّنيا حتى اليوم لم تصب بضرر ما.

ولنذكر الملوك الذين ملكوها بعد الطَّوفان على التَّرتيب. فأول ملك تملك هو «اردوان كريموط ملكه»([127])، وامتدت حكومته (900) تسعمائة سنة.

ثم أتى بعده الملك «زرونيطا لرهموط»([128])، ودامت حكومته (600) ستمائة سنة.

ثم أتى بعده الملك «ليفوروش زهناك»([129])، ودامت حكومته (550) خمسمائة وخمسون سنة.

ثم انحلت الأمور بدون ملك (100) مائة سنة.

ثم أتى بعد ذلك الملك «ازداك بن اسباك بهران»، فدامت حكومته (300) ثلاثمائة سنة.

ثم أتى بعده الملك «فيريدون بن تبيان»، فدامت حكومته أربعمائة وخمسين سنة.

ثم أتى بعده الملك «بشم بريمان»، مِن أسرة الملك «كركوم»، فدامت حكومته (500) خمسمائة سنة.

وهذه الحكومات، أي التي أتت بعد الطَّوفان حتى زمن حكومة «بشم»، تسمى حكومة الفراعنة من المصريين الأقباط، فيكون مجموع حكومتهم ثلاثة آلاف وأربعمائة سنة.

وعليه فيكون عمر الدُّنيا لوقت انتهاء زمنهم (469400) أربعمائة وتسعة وستين ألفاً وأربعمائة سنة.

وبعد انقراض حكومة «بشم» تولّت حكومة الفرس الأولى، وأولهم الملك «طروق»، ومدة حكومته (60) ستون سنة.

ثم أتى بعده الملك «قيقاس»، ومدة حكومته (503) خمسمائة وثلاث سنوات.

ثم أتى بعده الملك «كيكسر وبن سيوجان»، ومدة حكومته (60) ستون سنة.

ثم أتى بعده الملك «ايكاب بن يرزيم»، ومدة حكومته (300) ثلاثمائة سنة.

ثم أتى بعده «لرهسف»، ومدة حكومته (365) ثلاثمائة وخمس وستون سنة.

وبعده أتى «كشطاسف بن لرهسف»، ومدة حكومته (14) أربع عشرة سنة.

وبعده «ازدشير بن اسفنديار»، ومدة حكومته (112) مائة واثنتا عشرة سنة.

ثم أتى بعده «اشقان»، ودامت حكومته (470) أربعمائة وسبعون سنة.

فيكون مجموع حكومة الفرس الأولى ألفاً وتسعمائة وأربع وستين سنة، ويكون مجموع عمر الدنيا إلى هذه الحكومة (471364) أربعمائة وواحداً وسبعين ألفاً وثلاثمائة وأربع وستين سنة.

وبعد انقراض حكومة الفرس المذكورة، أتت الحكومة الإسرائيلية، ومدة حكومتها (900) تسعمائة سنة، وأول ملوكها سليمان.

وبعد انقراض الحكومة الإسرائيلية، أتت الحكومة البابلية، وأولهم الملك «أبروق سندر روهمايي»([130])، ومدة حكومته (14) أربع عشرة سنة.

ثم أتى بعده الملك «اشقان بن اشقان»([131])، ومدة حكومته (465) أربعمائة وخمسة وستون سنة.

ثم «ويسد يس وطبيان»([132]) ثم «اردوان»([133]) ومدة حكومتهما (14) أربع عشرة سنة. فمجموع حكومة البابليين أربعمائة وثلاث وتسعون سنة.

وعندئذ يكون مجموع عمر الدُّنيا (472757) أربعمائة واثنين وسبعين ألفاً وسبعمائة وسبع وخمسين سنة، وذلك حتى انقراض حكومة البابليين.

وبعد انقراض البابليين، تولى الفرس الحكم مرة ثانية، ومدة حكومتهم (382) ثلاثمائة واثنان وثمانون سنة.

وبعدهم الإسلام، وأول ملوكهم محمَّد (صلى الله عليه وسلم)، وقد مرَّ على حكومته الإسلام حتى اليوم (1345) ألف وثلاثمائة وخمس وأربعون سنة.

فيكون مجموع عمر الدُّنيا حتى اليوم (474484) أربعمائة وأربعة وسبعين ألفاً وأربعمائة وأربعاً وثمانين سنة.

فتبقى الدُّنيا على هذه الحالة (2655) ألفين وستمائة وخمس وخمسين سنة، حتى يظهر المسيح (عليه السَّلام) وهو غير المسيح الأول، الذي جاء للدُّنيا بمظهر جسماني، وفي زمنه تتبدل العادات ويُترك السِّلاح، ويكون للنَّاس شريعة واحدة.

وتمحى ديانة اليهود والنَّصارى والإسلام، ومدة بقائها تحت حكم المسيح (60000) ستون ألف سنة.

ثم يرجع الأمر إلى شريعة آدم السَّابقة، ثم تسلم إلى «هيبل زيوا»([134])، أي جبرائيل، وتبقى تحت حكومته (50000) خمسين ألف سنة.

وبعده ترجع إلى «امامات»([135])، وتبقى (170) مائة وسبعين سنة.

ثم تفنى الدُّنيا وتذهب إلى «المي دنهوره» عالم الأنوار.

فيُفهم من هذا الإحصاء أنه قد بقي من عمر الدُّنيا مائة واثنا عشر ألفاً وثمانمائة وخمس وعشرون سنة، فعندئذ يكون مجموع عمرها حتى يوم فنائها (587309) خمسمائة وسبعة وثمانين ألفاً وثلاثمائة وتسع سنوات.

الفصل التَّاسع: بحث مختصر مِن كتاب الكَنزه

أُخبر به آدم عمَّا([136]) سيخلق

ويأتي إلى عالم الدُّنيا وهو قريب

قرأ لي الشَّيخ([137]) جملاً مِن الكتاب المذكور، وهذا ملخصها مترجمة: إن الله تعالى أوحى إلى آدم أن يخبر تلامذته أنه سيخلق نبياً يدعى نوح؛ وبوقته يظهر الطَّوفان ويعمل سفينة، فيحمل النَّاس فيها. وبعد زواله يكون ناس كثيرون ينتشرون في أقطار الدُّنيا، ثم يظهر بعده إبراهيم الخليل يدّعي النُّبوة، ويُبطل الشَّرائع القديمة التي قبله بشريعته، ويدعو النَّاس إليها جبراً، ويجلبهم إلى بيته بالقوة القاهرة، وأن ديانته ليست بصحيحة، ثم يرسل بعده داود وابنه سليمان.

وسليمان هذا يكلم الجن والحيوانات، وتطيعه، وبأمره يكون بناء «أورشليم» البيت المقدس، وإنه يطغى في نعمته، فتُسلب منه، وبينه وبين أعمال السَّفينة([138]) ستة آلاف سنة. وأول ملك سيكون بعد الطَّوفان هو اردوان ملكه»([139])، ويحكم (900) تسعمائة سنة، وبعده «رزوبطالهموراط »([140])، ويحكم (600) ستمائة سنة، وعدد كثير، وآخرهم «باشام بريمان»([141])، وهو من أسرة «كركوم»([142]) الملك.

ثم يأتون الفرس. وأول ملك يكون منهم «اطوارق»([143])، ويحكم (60) ستين سنة، وعدد ملوكاً كثيرة. ووصف رسالة موسى وضياع أتباعه في التَّيه، ووقعة فرعون معه وغرقه في البحر، ودخولهم فيه (كما جاء في القرآن العظيم). غير أنه قال: وكانت الجنود التي غرقت مع فرعون (700770) رجلاً، كلهم ماتوا في البحر غرقاً.

ثم ذكر أنه سيظهر «موشيهه كداوه»([144]) أي المسيح الكذاب، وإن آدم يوصيهم بعدم اتباع أوامره ونواهيه، وسيدعي أنه يبرئ المريض، ويشفي العليل، فإن ذلك كذب منه. والذي يجيء على هذه المواصفات هو عيسى الرُّوحاني الذي يأتي بعده.

أما الأَول فسيأتي بجسد جسماني، والثَّاني سيذهب إلى «آلمي دنهوره»، وتستعمل في وقته الآلات الميكانيكية والبخارية، ويعمل شيئاً يطير مِن الأرض، فيكون في السَّماء، وهذا ما يعبرون عنه بالطَّيارات.

وفي زمنه يظهر الفسوق والفجور، وتختلط النِّساء الأبكار بالرِّجال، ويرقصون ويشربون الخمور جميعاً. ثم يأتي ملك العرب المسمى «شيهو لدايو»([145])، أي تالي الأنبياء في زمن ملك الفرس يزدجرد([146]). وستقع في زمن هذا يزدجرد([147]) محاربات كثيرة، وملك العرب يلد في زمنه. ويعني بملك العرب محمَّداً (صلى الله تعالى عليه وسلم). ولم يذكر كتابهم هذا ما يمس كرامته (صلى الله عليه وسلم) وكرامة أُمته وشريعته.

ولدى السَّؤال (مِن الشَّيخ)([148]) عن ذلك، وهل ما ذكرتموه بكتابكم هذا نشأ مِن خوفكم مِن الإسلام؟! قال: لا، لأن شريعة محمد جاءت متممة للشَّرائع، ولم تكن شريعة ناقصة، وإن دينه حنيف، وذكر مِن المتممات قضية تقسيم المواريث، وقد أطال في المدح والثَّناء. والله أعلم بحقيقة الحال.

الفصل العاشر: اعتقادهم في ولادة يحيى عليه السَّلام

إن ولادة يحيى([149]) عندهم غير طبيعية لما قالوه، إنه لما مات الكثير من الصَّابئة والأساقفة ضلوا طريق الرشاد، ولم يجدوا من يهديهم إلى ديانتهم، شكوا حالتهم إلى «مارادريبوثه» حينما انقطع الوفد من عالم الأنوار «آلمي دنهوره»، فاستحضر لهم «مندادهيي»، وهو أحد أتباعه المقدم ذكرهم، وأمره أن يعطي ملكا أناء فيه ماء ليقدمه إلى «انشبى»([150])، حملت بيحيى (يهيه يوهنا)([151]).

وفي الليل رأت اليهود في المنام أن «انشبى» حملت وستلد ولداً يكون زعيم الأمة. وأن اليهود يدينون بدينه ويعمّدهم، فلما أصبح الصباح قصوا رؤياهم على العازار رئيس الملة اليهودية يومئذ، فذهب إلى أبي صابا([152]) والد يحيى، وأخبره بالقضية فأنكر عليه أبو صابا، وقال له: إنها عجوز، ولا يمكنها أن تحبل.

فقص العازار القصة على كبار اليهود، ودعوا المعبّرين فعبَّروا الرُّؤيا، فكانت مطابقة للواقع، فأسروا وصمموا([153]) على مراقبة «انشبى»، وقتل ولدها عند الوضع. وجاء العازار ذات يوم إلى أبي صابا ليلاً ليكلمه في ذلك، فرأى قدام أبي صابا قبسين من نور، وخلفه قبسين مثلهما فسأله عن ذلك، فقال: لا أعلم، وهذه هي المرة الأولى، وقد لازمته الاقبسة طول مدة الحمل.

ولما مضى على حملها تسعة أشهر وتسعة أيام وتسعة ساعات وتسع دقائق، وقرب وضعها أتت نساء اليهود حولها ناوين اختطاف المولود والفتك به؛ فحضر عندئذ الملك الموكل بإدارة رأس الجنين «زهرئيل لا لاتو»([154]) فأداره إلى الأعلى وأخرجه مِن فم «انشبى»، وسلمه بيد الملائكة، فذهبوا به إلى شجرة في عالم الأنوار تسمى «مهزيون ملاله»([155]) فيها ثدى كثيرة اللَّبن، فنشأ هناك يحيى، وتعمد باسم الإله، واسم «مار ادر يبوثه»، و«مندادهيي».

ولما أراد إظهار نبوته، وإرساله إلى العالم السُّفلي، وسن شريعته، قرأ عليه أهل العالم السَّعيد كلمات سريانية لتمتنع عنه النَّار والسِّلاح، وسائر الآفات، وعلموه كلمات إذا نطق بها حصل له ما شاء وما أراد، وأمروا «انش اثرا»([156]) أن يصحبه فركبا زورقاً في الفرات قاصدين أورشليم، وبينما هما سائران عرفتهم خادمة لبيت يحيى فأخبرت به «انشب»، وهمّت بالذِّهاب إليه.

ولما علم زوجها أبو صابا([157]) منعها، فسقطعت صحيفة مِن السَّماء محرر فيها يا أبا صابا([158]) إن «انشبى» ذاهبة للقاء يحيى، فإياك أن تسوءها بأمر ما، ولكن اذهب بأثرها، فذهبا إليه واحتفلا به، وهو (احتفل)([159]) بهما، وكانت الشَّمس والقمر يحفظانه، ولما وصلا بيت المقدس رجع «انش أثرا »([160]) إلى عالم الأنوار، فأظهر هناك يحيى معجزات نبوّته، وهي شفاء المرضى والعميان، فلم تؤمن به اليهود، وأحرقوا عليه داره، فلم تضره النار، ثم آمنوا به إلا العازار وأتباعه.

قال الشَّيخ مترجماً لي من الكنزه: كان قبل ظهور يحيى ملك يسمى «داراملكه»، أي ملك دارا، وقد مات، فتشتت الصَّابئة وتبعثرت كتبهم بنتيجة ما دار من الحروب بينهم وبين بني إسرائيل، ولم يبقَ إلا القليل مِن أتباعه، وقد فروا إلى أماكن بعيدة. ولما ظهر يحيى (عليه السَّلام) جمع كتباً، وصنف صحفاً، وزّعها على أتباعه، وأحضر قسماً كبيراً من بقية الصَّابئة الفارين، وقد ثبت له حق ديانة الصَّابئة، فأمر بنزع الكتب التي حررها، ووزعها عليهم، وأمرهم باتباع الكتب القديمة، فمنهم مَن اقتفى التَّعاليم المحررة في الكتب القديمة، ومنهم مَن اقتدى بكتبه (انتهت التَّرجمة)([161]).

وبعد أن قرر يحيى شريعته، خرج إلى الأردن، فعمّد «ايشو شيهه»، أي عيسى المسيح باسم الله، واسم «مارادريبوثه» و«منداهي» الأسماء التي عمد بها هو. وبما أن يحيى (عليه السلام) كان جميلاً لا زال يدعو الله ويبتهل إليه أن يصونه مِن النِّساء([162])، وقد بقي زمناً طويلاً عزباً حصوراً، فحرضته الصَّابئة على الزَّواج خوفاً مِن اضمحلال ملّتهم، فتزوج، وقد جرت بينه وبين زوجته أبحاث منها: أنه قال لها: إذا متّ فخير ما يكون منك الابتهال إلى الله، وأن تذبحي الذَّبائح، وتدعي الأساقفة والقسيسين ليأكلوا، ويصلوا عليَّ، وأن تلقي في قلبك الفرح([163]).

الفصل الحادي عشر: كيفية قبض روح يحيى عليه السَّلام([164])

لما تم يحيى حديثه هذا مع زوجته حضره «منداهيي»([165])، وطلب منه أن يعمّده، فوعده الغد، فجاءه بصفة فتى، وهو في الصَّلاة، وظنه يريد تعليم الصَّلاة، فتناول «قبساً»، ورمى به على يحيى فنام. وقبل إتمام صلاته دعا الله «منداهيي» أن يجعل الليل أربع ساعات، وبعد مضي أربع ساعات استيقظ يحيى من منامه، وذهب إلى النَّهر، فاغتسل وصلى، وطلب الفتى أيضاً أن يعمّده، فنزل يحيى في الماء، وأمره أن يتبعه.

فازداد ماء النَّهر، وغمر ثياب يحيى على خلاف العادة، فرجع إلى البرّ ورجع الماء، وبقى يحيى على اليبس، وبقيت الحالة متكررة في ذهاب الماء ورجوعه ثلاثاً. وفي الحال الرَّابعة لم يرتفع الماء، لأن «منداهيي»([166]) أمره سراً بالوقوف، وفي هذه الحالة ظهرت الأسماك إلى البر بلون أبيض ناصع.

وقد اجتمعت حولهما، فصاح يحيى حينئذ تبارك اسمك منداهيي([167])، وكذلك الطَّيور وقفت فوق رأس «منداهيي»([168]) فقبل يحيى الفتى. وظهر عندئذ بمظهره السماوي وعليه البهاء والجلال، ومد يحيى يده ليلمس يد منداهيي([169])، فقال له: إن تمسها تموت.

فقال له يحيى: إني أتمنى ذلك وأذهب إلى عالم الأنوار، ولا أذهب مع «صاورئيل»([170])، وهو الملك الموكل بقبض الأرواح، وقد خرجا من الماء، وأعطى منداهيي([171]) يده إلى يحيى فسقط ميتاً، ورجلاه وسائر جسده خارجه، والتحقت نفس يحيى بمنداهيي([172]).

وبينما هما سائران في الفضاء رأت روح يحيى جسده مطروحاً في الأرض والطَّيور والوحوش تأكله. فتأوهت روح يحيى، فسألها منداهيي([173]) عن سبب التأوه، فقالت: إني خلفت بعدي أولاداً، وكنت أود القيام بتربيتهم. فقال «منداهيي»: ليس هذا، وإنما سبب تأوهك رؤياك جثتك على هذه الحالة.

فعنئذ أخذ «منداهيي» قبضتين مِن التُّراب، وألقاهما على جثته فكانتا قبراً له، وانتهيا في السير إلى نهر «دخشاشة»([174])، وهو كائن بين «مطراثي»([175]) وبين عالم الأنوار، فركبا زورقاً، وعبرا النَّهر المذكور، ودخلا في عالم الأنوار، وأقام يحيى في قصر «منداهيي»([176]) أبيه. هذا ما كان من عقيدة الصَّابئة في ولادة يحيى وقبضه.

الفصل الثَّاني عشر: اعتقادهم في الجدي([177])

قال الشَّيخ: ليس للصَّابئة اعتقاد خاص بهم، غير أنه لما كانت وظائف النُّجوم السَّيارة السَّبعة، وهي: عطارد، والزُّهرة، وكيوان -أي زحل-، والمريخ، والسُّنبلة والعقرب، والميزان، حراسة الأقاليم السَّبعة، وتنوير أفكار أهاليها، ودفع النَّحس عنها، وجلب الخير إليها، فالموظف على آسيا.

وآسيا هي محتوية على السِّند، والهند، وقابور، ولركان، وسستان، والصُّور، وفانوس، وسند، ورشريفات، وسهيل، وسواهيل، وبحر البصرة، وفاس([178])، ونسابور، وشيراز، وشنابور، وزنج نهروان، والحويزة البعيدة عن عراق الفرس، والبصرة، وواسط، وبغداد، والحلة، والكوفة، والأنبار، ودمشق، وعين الطَّبيرة، وبيت المقدس، والرمله، وعسقلان، وبحر القلزم، وقسطالي، وساكان، وبحر المغرب.

فإن النَّجمة الموكلة على آسيا هذه هي تبزغ أي المريخ، والجدي هو محل القياس والاتجاه في الصلاة إلى القطب الشمالي، لأن القطب الشِّمالي لا يتحرك عن محله، والقطب المذكور متوجه إلى ملك الأنوار، فاتجاههم لا يكون إلا له، لا لغيره، وهو الله سبحانه وتعالى. وقد ترجمت هذه الفقرات مِن كتاب الكنزه السَّالف الذِّكر([179]).

ولم تكن قبلتهم بيت المقدس، كما هو عند اليهود والنَّصارى لحدوثه، نظراً لقدم دينهم مِن ظهور آدم أبي البشر. قال ابن خلدون في مقدمته: أما بيت المقدس، وهو المسجد الأَقصى، فكان في أول أمره أيام الصَّابئة موضع الزُّهرة، وكانوا يقربون إليه الزَّيت في ما يقربونه، ويصبونه على الصَّخرة التي هناك، ثم دثر ذلك الهيكل([180]).

الفصل الثَّالث عشر: درجات([181]) علمائهم وكيفية

صيرورتهم علماء روحانيين

الدَّرجة الأُولى حلالي

تنقسم العلماء إلى خمس درجات، الأولى «حلالي»، وشرط صيرورته عالماً من هذه الدَّرجة أن لا تكون أمه ثيبة؛ ولا يجوز لمن كانت أمه ثيبة أن يكون عالماً من هذه الدَّرجة، إلا بعد سبعة أظهر، وأن لا يكون أعورَ([182])، ولا أطرشَ([183])، ولا ناقص الحواس، ولا أبرشَ([184])، ولا يوجد فيه أثر جدري، أو زوائد أو نواقص في جسمه، فإن خلا من هذه الصفات يُعمَّد ويتناول بعض الكتب المقدسة الدِّينية الابتدائية، ويدعى حينئذ حلالي.

الدَّرجة الثَّانية تلميذه أي طالب

وهو أن يعمّد الشَّخص المسمى حلالي في ماء جارٍ متصل في بئر. وبعد خروجه منه تجتمع عنده علماء مِن درجات تلميذه و«كَنزبره»([185]) سبعة أيام بلياليها، على شرط أن لا ينام الرَّجل الطَّالب، أن يكون عالماً مِن درجة تلميذه خشية الاستحلام، وإذا نام واستحلم فلا يكون عالماً، والاستحلام دلالة على عدم صيرورته عالماً مِن هذه الدَّرجة. ولأجل تسليته عن النَّوم ودفعه عنه، تدق عنده «الدَّنابك»، فإذا كملت الأيام والقراءة السَّالفة الذِّكر كان عالماً تلميذاً.

الدَّرجة الثَّالثة كَنزبره أي مفسر الكتاب المسمى كَنزه([186])

هو أن التَّلميذ المار ذكره إذا أراد أن يكون كَنزبره، يبنى له محل خاص مِن قصب وطين قريباً من بئر متصلة بنهر إلى الشَّط (أي النَّهر)، فيعمّدونه، ويحضر تعميده عالمان مِن درجة تلميذه، وعالمان من درجة كَنزبره، ويكملون هذه المراسيم بالقراءة عليه والتَّهليل، فيكون كمن درجة كَنزبره. ولا يقرب امرأة حتى تموت امرأة عجوز أو رجل مسنّ مِن ملّته، فيحضر دفن ذلك الميت، ويضع بيده قارورة مِن زجاج فيها ماء، كان قد قرأ عليه، ويزعمون أن هذه القارورة ستبقى بيده إلى أن يموت العالم، فتعود الزُّجاجة له، فعندئذ يتزوج العالم مِن درجة كَنزبره.

الدَّرجة الرَّابعة الأرشمة أي رئيس أمة

وهو أن عالم كَنزبره إذا أراد أن يكون عالماً مِن الدَّرجة الرَّابعة المذكورة، يبنى له بيت كما تقدم، وتجتمع على تعميده والقراءة عليه سبعة أنفار من درجة كَنزبره، كانوا قد حَصلوا عليه، واستفادوا مِن علمه، وعلماء آخرون مِن درجة تلميذه، فيقرأون له قراءة مخصوصة، وإذا لم يتحصل على علماء مِن هذه الدَّرجة والعدد لا يكون عالماً من درجة أرشمه أبداً.

الدرجة الخامسة الرَّباني

وهو أن عالم درجة أرشمة إذا أراد أن يكون عالماً مِن الدَّرجة الخامسة، يحضر إلى تعميده والقراءة عليه سبعة أشخاص من درجة أرشمة، والباقون مِن درجة كَنزبره وتلميذه، فيقرأون عليه قراءات معلومة بأيام معدودة، وبعد إكمال ذلك لا يجتمع مع أحد، ويرتفع إلى «أباثر» و«المى دنهوره» عالم الأنوار، وعند لزوم بث الأُمور التَّشريعية على الملة ينزل إلى الأرض. وما حاز هذه الدَّرجة إلا «يهيه يهانه» أي يحيى (عليه السَّلام). ولا يجوز لهؤلاء العلماء أن يأكلوا في دور غيرهم مِن دُور ملّتهم، والدُّور السَّائرة مطلقاً، وإنما يعتمدون على امرأة مِن نسائهم يقرأون عليها ويعمّدونها، ومتى حصلت القناعة لهم بها تعمل لهم أكلهم، وتغسل ألبستهم، وإذا لم يجدوا امرأة يعتمدون عليها، فإنهم يقومون بأعمال الطَّبخ والغسل بأنفسهم لا غير.

الفصل الرَّابع عشر: وظائف العلماء

أما وظائفهم فهي تعميد أفراد المِلّة، وتعليمهم أُمور ديانتهم، وعقد النِّكاح إلى البنات الأبكار لا الثَّيبات. فإذا عقد أحدهم الثَّيبة فإنه يرتكب خطيئة لا تغتفر. أما الذي يعقد للثّيبات فإنه رجل يختارونه تقياً، لم يكن مِن سلالة روحانيين، ودرجته العلمية تلميذه، ولا يجوز أن يرتقي درجة علمية أعلى من هذه أبداً، ولا يباشر أشغالاً دينية غير العقد للثيّبات، ويسمى «بيسق »([187]) أي «كَنزبره» ثانٍ.

حكى لي الشَّيخ([188]) أنه اعتمد على امرأة مِن أفراد عائلته للفحص على امرأة ليعقد لها، فأخبرته أنها بكر، وعقد لها، فذهبت إلى زوجها، وبعد مرور ستة أشهر ولدت ولداً تام الخلقة، فظهر مِن ذلك أنه عقد لها وهي ثيب حامل، وبما أنه من درجة «كَنزبره» علم أنه قد ارتكب خطيئة عظيمة.

وذهب إلى العلماء الذين لا يقربونه نسباً، مِن علماء المحمرة وناصرية العجم وغيرها، وأخبرهم بالقضية، فأمروه بإكثار التعميد، وأنه يبرأ مِن هذه الخطيئة، فتعمّد 360 مرة، على عدد الأشخاص السَّماويين السَّالفي الذِّكر، ولما اكتمل التَّعميد برأ من خطيئته، وعاد إلى وظيفته العلمية «كَنزبره».

الفصل الخامس عشر: الذِّباحة([189])

الذَّبح الخاص بالعلماء

يأتي العالم بالذَّبيحة إلى ضفة الشَّط، ويخرج طيناً مِن النَّهر، ويضعه عند ضفة النَّهر، ويغسل الذَّبيحة بالماء، بعد أن يغمسها في الشَّط ثلاث مرات، ويلبس العالم «رسته»([190])، وهي ثوب خفيف مِن قطن أبيض، ويتمنطق بسفيفة معمولة مِن صوف، يحضر شاهد واحد ليشاهد كون الذَّبيحة استوفت هذه الشُّروط، ويذبحها متوجهاً إلى الجدي، وتنجس الذَّبيحة بمساس كل شيء حتى لو ألقى عليها حجر، أو عود (تنجس)([191])، ولو قطرت عليها قطرة مِن ماء صارية السَّفينة، تنجست وحُرّمت. هذا ذبح العلماء الخاص.

الذبح لسائر الصَّابئين

يحضر العالم مِن الدَّرجة الأُولى الحلالي([192])، مقداراً مِن القصب أو البردي أو الحلفاء، فيغسله بالماء، ويحضر الذَّبيحة مغسولة مغموسة في الماء الجاري بالشَّط ثلاث مرات، ويطرح الذَّبيحة فوق القصب، ويقرأ عليها قراءة سريانية([193]) فيذبحها ولا يلمسها أحد، وباللمس تنجس كما تقدم، ومِن شروط حل أكلها أن لا تكون عوراء ولا شلاء([194]) ولا جماء –مكسورة القرن– وليس فيها زوائد، ولا مشقوقة الأذن.

ذبح الدَّجاج

إن العالم الحلالي بعد أن يغمس الدَّجاجة في الشَّط الجاري، كما تقدم، يذبحها وهي في يده، ولا يضعها على الأرض، وبعد الذَّبح توضع رأساً في القدر، وإن لمسها أحد، أو وضعت على الأرض تنجست وحُرِّمت، ويلزم حضور الشَّاهد، ولبس الرِّسته والسَّقيفة في كل أنواع الذَّبائح. ويحرم الذَّبح ليلاً إلا في ليالي عيد البنجه أو «الطَّنجه»([195])، لتساوي اللَّيل والنَّهار فيه، فأنه يجوز الذَّبح فيها.

هل يجوز للمسلمين أَكل ذبيحتهم؟

قال الشَّهاب الآلوسي([196])، رحمه الله تعالى، في روح المعاني، عند تفسير قوله تعالى {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ}([197])، إلى آخر الآية الشَّريفة. وحكم الصَّابئة حكم أهل الكتاب عند الإمام الأعظم([198]) (رضي الله عنه). وقال صاحباه([199]): الصَّابئة صنفان صنف يقرأون الزَّبور([200])، ويعبدون الملائكة، وصنف لا يقرأون كتاباً، ويعبدون النُّجوم، فهؤلاء ليسوا مِن أهل الكتاب([201]) (انتهى).

أي يحل أكل ذبيحة الصِّنف الأول، ولا يحل أكل ذبيحة الصِّنف الثَّاني. ومما جمعناه في هذه الوريقات عن شريعة الصَّابئة فهم مِن الصِّنف الثاني، لأنه ليس في كتبهم الزَّبور، ولا يعترفون به،

ولا بصاحبه، فأكل ذبائحهم حرام([202]).

الفصل السَّادس عشر: التعميد والاسم الدِّيني([203])

تعميد الأطفال

قال الشَّيخ: يجب على المرأة عندهم أن تحمل ولدها يوم الأَحد، أو يوم العيد، إلى عالم بدرجة «كَنزبره»، والعالم يحضر على الشَّط مع اثنين مِن الشَّمامسة([204])، فعنئذ يتوضأ العالم «كَنزبره»، ويصلي، فيأخذ أحد الشَّمامسة الطَّفل من أمه، ويضع العالم في خنصر الولد اليمنى خاتماً مِن خشب شجر الياس.

فينزل في الشَّط ومعه الشَّماس حامل الولد، ويأخذ العالم حفنة من الماء، فيرميها على الطَّفل ثلاث مرات، ويقول في تعميده له: باسم الثَّلاثة الله([205])، منادهيي، ويهي يوهنه، قالوا: كان يحيى يقول في تعميده هذه الأسماء.

ثم يخاطب العالم الولدَ بقوله: أعمّدك معمودية بهرام العظيم([206]) بن برده بي، أي ابن الأكبر. ثم ينزع الخاتم مِن الطَّفل، ويضعه على رأسه ويبخره، ويدهن جبهته بدهن السِّمسم المقدس ثلاث مرات.

وسيأتي البحث عن وقت عمل هذا الدِّهن، ويقول: تسمَ باسم يحيى، وباسم منادهيي. ثم إن العالم يمسك يدي الشَّماس والطَّفل ويخرجا مِن الشَّط. وبعد ذلك يأخذ العالم ما كان على رأسه، ويقبّله ستين مرة. ثم يأخذ الشَّماس الخاتم مِن فوق رأس الطَّفل، ويضعه على شفة الطَّفل وجبهته، ويرميه في النَّهر.

تسمية الأشخاص([207])

يلزم على الوالد أو الوالدة أن تضبط ساعة ويوم أو ليلة ولادة ولدها. وعند تعميد طفلها تخبر العالم بالتَّاريخ المذكور، فالعالم حينئذ ينظر في كتاب «دراشة اد يهيا»([208])، ويحسب وقت ولادته ونجمه، ويظهر له سعده أو نحسه، ويسمّيه باسم سرياني([209]).

فيكتم هذا الاسم، ولا يستعمل إلا في الأحوال الدِّينية، وله اسم ثانٍ عربي يستعمل بين النَّاس. كما أن اسم الشَّيخ –الذي أنوّه به– بالسِّرياني([210]) (هو)([211]) «امهتم زهرة بريسمن»([212])، وبالعربي شيخ دِخَيَّل، مصغر دِخَيَّل، وبرُّ بمعنى ابن، ويسمن اسم أمه لا أبيه، وعندهم أن النِّسبة إلى الأم أصح وأوقع.

كيفية تعميد الأشخاص الكبار

تنجس الصَّابئة باللمس والاختلاط بالأمم السَّائرة الأجنبية عنهم. وعند الرُّجوع مِن السَّفر، أو أكل البقول المجلوبة مِن الأسواق قبل غسلها، وأكل لحم ذبح على غير دينهم، فيحضر إلى العالم

ويخبره بذلك([213]). فيحضر أدوات التَّعميد، وهي ثوب مِن خام خفيف أبيض ويسمى رسته، وسفيفة من صوف أبيض مكتوب على أطرافها كتابة سريانية([214]).

فتشد السِّفيفة في وسط المحزم، على أن يكون رأسا طرفيها متساويين. ويضع المعمد في خنصره الأيمن خاتماً من شجر الياس الأخضر، ويأخذ العالم عصا مِن الشَّجر المذكور، ثم يحضر كانونين مِن طين، ويضع فيهما ناراً، وقارورتين مِن زجاج صغيرتين فيهما ماء، وطاستين صغيرتين مِن النُّحاس الأصفر «برنج».

وأن يكونا في حالتهم هذه متوجهين إلى الجدي، نازلين في النَّهر بحيث يصل الماء إلى ركبتيهما([215])، فيغمس طالب التَّعميد في الماء الجاري سبع مرات متواليات، بلا فاصلة، ويسأله العالم عن اسمه بقوله: «ما ملواشتك؟»، فيجيبه عن اسمه واسم أمه الحقيقي السِّرياني([216])، ويقرأ عليه قراءة سريانية([217])، فعندئذ يطهر ويكون معمّداً.

الفصل السَّابع عشر: الرَّشامة: أي الاغتسال والوضوء

إذا أراد الصَّابئي الاغتسال مِن الجنابة، ذهب إلى النَّهر، أو إلى ماء جارٍ، كماء عين كبيرة، أو نهر صغير جارٍ، ولا يطهر بالاغتسال بماء الحمام، لأنه نجس العين هو وماؤه، فيغمس جميع بدنه فيه دونَ أن يفوه بقراءة ما. إذ لا يجوز له أن يقرأ وهو جنب.

فإذا خرج مِن الماء جلس المغتسِل على ضفة النَّهر يريد الوضوء.

فعندئذ يقرأ قراءة تسمى «رخصة»، كما نسمّيها نية([218])، وهي قوله: «كشطا اسحنون بشميهون إد هي ربي اسوثه وزكوثه وشابق هطايي نهويلخ يا بابا ربه إد بيت رهمي يقيرا»([219])، وترجمتها «أعهد شفائي لكم بأسمائكم أحي الرَّبَّ الشَّفاء والزَّكاة منكم، يا أب الملائكة الصَّالحين المستوطن في ماء الحياة بأسمائهم أحي الرَّبَّ».

ثم يغسل يديه ويقول: «هللنن ايدن بكشطا، واسفن بهيمنوثه، وللنن بملالي إد زيوا واسهي طبن بؤصري دنهورا»([220])، وترجمتها: «غسلنا أيدينا المفتوحة بالإيمان متكلمين بكلام صحيح منور، وقلوب مطمئنة بعنصر الأنوار».

ثم يغسل وجهه ويقول: «ابرخ اشمخ مشبّا اشمخ ماري مندادهيي، ابرخ ومشبّا هاخ برصوفة ربا إد ايقاره اد من نافشي افرش»([221]). وترجمتها: «مبارك اسمك ومسبح اسمك ربي مندادهيي، مبارك ومسبح ذلك الجلال العظيم الموقر الذي انبعث من ذاته».

ثم يمسح جبهته بالماء بأن يجمع أصابع يده اليمنى الخمسة، ويمرها على جبهته من مبدأ صدغه الأيمن منتهياً به عند صدغه الأيسر مرة واحدة، ويقول: «رشمنا بروشمه ادهيي، اشمه ادهيي واشمه اد مندادهيي مدخر لي»([222])، وترجمتها: «رسمت برسم الحي، اسم الحي واسم مندادهيي مذكور عليّ».

ثم يدخل سبابته في أذنيه، ويقول: «أُدني شمّن قاله إدهيي»([223])، وترجمتها: «أذناني تسمعان أقوال الحي». ثم يستنشق ويقول: «نهيري ارّه ريهه إد هيي»([224])، وترجمتها: «أشم رائحة الحياة». ثم يتمضمض ويقول: «بُمي بوثه وتشبهثه إمله»([225])، وترجمتها: «فمي امتلأ آياتٍ وتسبيحاً».

ثم يأخذ قليلاً من الماء برؤوس أصابعه العشرة، ويضعها على ركبتيه، ثم ساقيه، ويقول: «بركي مربيكه وساغده لهيي ربي»([226])، وترجمتها: «ركبتاي مثنيتان وساجدتان للحي العظيم». ثم ساقيه ويقول: «لغري مدريكه دركي اد كشطا وهيمنوثه»([227]) وترجمتها: «رجلاي سالكتان طريق الحق والإيمان».

ثم يقول المتوضّئ: «روشمي ايلاوي لاهوه بنوره ولاهوه بمشّة ولاهوه دمشيهه، روشمي امشه روشمي بيردنه ربه ادميّه هيي اد أنش بهيلي لا مصي اشمه إدهيي واشمه إد منادهيي مدخر

إلي»([228]). وترجمتها: «رسمي العالي لا هو بالنَّار، ولا هو بالدِّهن، ولا هو بالمسح، رسمي مرسوم بالماء الجاري العظيم ماء الحياة، الذي لا يدرك الإنسان قدرته، اسم الحي العظيم، واسم منادهيي مذكور عليّ. أمسح رسمي بماء الحياة الجاري في النَّهر من عالم الأنوار». ثم يرش الماء، وكيفيته أن يدفع المتوضئ ثلاثاً.

ثم يقول المغتسل أو المتوضئ ذاكراً ملواشته بالسِّريانية([229]) قوله: «إصبينا بمصبته اد بهرام ربه بر روربي مصبتي تناطري وتسق الريش، اشمه ادهيي واشمه اد منادهيي مدخر لي»([230]). وترجمتها: «اصطبغت بصباغة الملاك بهرام الكبير ابن العظمة، صباغتي تحرسني وترفعني إلى العلا، اسم الحي، واسم منادهيي مذكور عليّ».

ثم يغسل رجليه ويقول: «لغري ايدايهون اد شبه وترسر لا تشتلط الي، اشمه اد هيي واشمه اد منادهيي مدخر لي»([231]). وترجمتها: «رجلي أيديهم([232]) السَّبعة والاثنى عشر لا يتسلطون علي (اسم الحي واسم منادهيي مذكر عليّ)»([233]). فعندئذ يتم وضوئه، وفي أحواله هذه كلها يتوجه إلى الجدي([234]).

ما يفسد الوضوء وينقضه

والذي يفسد الوضوء وينقضه، رعف أنفه، وخروج دم من فمه، ولمس لحم أجنبي، وخروج دم من جسمه، وسال عن محله، ومرض وشرب دواء، وخروج ريح أو غائط أو بول، فعليه تجديد وضوئه، ويجب الوضوء لكل صلاة([235]).

الفصل الثَّامن عشر: الصَّلاة والصَّوم

كيفية الأذان([236])

لا يؤذنون في محل عالٍ مرتفع مثلنا، وإنما يؤذنون بينهم بصوت خفي، وهو سرياني([237]) العبارة، وهذا نصه: «قوم قوم بهيري، زدقه قوم شلماني ومهيمتي، قوم اسغد او شيا لهيي ربي اوشبا لملكه شيشلام ريه اوشبا التنه كسيا هام زيوا، وشبا لياور ربه وازلات ربتي، وشبا لسيمات هيي إد منهيون كلهون المي، وشبا لانيه اوسندركا إد ابا إد اثري اد منه اهوه، انا سغدنالا و مشبينا لا الها هو ملكه رامه ربه دنهورا يهاسا دا ملى رهمي»([238]).

وترجمته: «انهضوا انهضوا أيها المختارون المصطفون، انهضوا أيها الأتقياء والمؤمنون، انهضوا واسجدوا وسبحوا للحي العظيم، وسبحوا للملاك شيشلام الكبير، وسبحوا للمصدر الخفي مولد النور، وسبحوا لياور الكبير وازلات العظيمة، وسبحوا لسيمات هيي التي منها تكونت كل العوالم، وسبحوا لمنبع القوة الخالقة الأب الأثري منها انبثق. وأنا أسجد وأسبح لمالك النور السامي العظيم الرؤوف المليء بالرحمة».

كيفية الصلاة وأوقاتها

قالوا: إن الله كان قد فرض على آدم وعليهم سبع صلوات في اللَّيل والنَّهار، خمسة منها تصلى في أوقات صلاة المسلمين، واثنان منها في غير هذه الأوقات، ثم قصرها يحيى إلى ثلاث صلوات([239])، وضم بعضها إلى بعض. فالأولى صلاة الصُّبح، ووقتها عند طلوع الفجر، وهي سبع ركعات، والثَّانية وقت الظُّهر، والثَّالثة عند الغروب وقت الأصيل، وكل وقت خمس ركعات.

وكيفيتها أن يتوجه المصلي إلى الجدي، وفي الأصل إلى القطب الشِّمالي الذي يكون عنده ملك الأنوار، رافعاً يديه، وقليلاً من رأسه مع انحناء قليل إلى (وضع)([240]) الرُّكوع، لابساً الزِّسته([241]) والسِّفيفة، وحينئذ يقرأ قراءة سريانية، وهي سبع قراءات، ولم أقف إلا على بعض منها، وهي: «بشميهون إد هيي ربي يا بابا ربه اد بيت رهمي يقيرا، اسوثه زكوثه نهو يلخون (منها) بشميهون إد هيي ربي قدمايي نخرايي منآلمي دنهورا يتيري اد ايلاوي وكلهون او بادي اشمه هيي واشمه منداهيي... زيوا وانهورا اد ايقاره اد من نافشي افرش»([242]). وترجمتها: بأسماء الأحياء السريانيين باب الرحمة الكبرى الموقره الشفاء والزكاه منك، وتصير لكم وباسم الرب الحي القديم الأكبر من عالم الأنوار الحاضر على كل الأعمال.

الصَّوم

لقد حُرِّم الصَّوم([243]) في شريعتهم، وإنهم يقولون بحرمة منع التَّلذذ بالمأكولات والمشروبات، وهو من باب تحريم ما أحله الله([244]). ويظهر البعض منهم نفسه في أول العشرة من رمضان أنه صائم، لا يأكل ولا يشرب بمحضر الصائمين المسلمين، ويدّعي أنه صائم، وقد

سألت سبب ذلك من الشَّيخ([245]) أجابني: لكثرة اختلاط الصَّابئة بالمسلمين بالأخذ والإعطاء، فاتباعاً لهم يُظهرون الدَّعوة بالصِّيام، وإلا فهو حرام عليهم البتة.

الفصل التَّاسع عشر: ما حُرِّم عليهم

يحرم أكل كل حيوان ذي ذنب([246]) ويحرم أكل النِّعاج، ويحرم السُّكر، إلا([247]) شرب الخمر القليل، ويحرم التَّزوج ببنت الأخت([248]) وبزوجة الأخ المتوفى. لأن النِّكاح لا ينقطع عندهم بالموت، وتبقى زوجته حتى وفاتها، وأنها تذهب معه أينما ذهب بعد الممات، وذلك إذا لم تتزوج بعده بزوج آخر.

ويحرم جماع الحائض والنَّفساء. ويحرم على الجنب أن يمس شيئاً أو يأكل. وكل ما يمسه ينجس فيجب غسله. ويحرم على النِّساء أن يمسسنَ شيئاً وهنَّ حائضات أو نفاساً، ويحرم الزِّنى، واللِّواطة، والنَّظر إلى النِّساء، والسَّرقة، والكذب، والرِّبا، والقتل حرام إلا في الدِّفاع عن العرض والنَّفس.

وكذا الضرب بالآلة المطربة إلا في أيام الأعراس. وحلق الذَّقن والختان حرام، وحلق شعر الرَّأس، وقالوا: إن الله لم يخلق زائداً في البدن ليزال ويقطع.

ويحرم على علمائهم أكل كل ما يُجلب مِن الأسواق غسل أم لا. ويحرّم عليهم أيضاً أكل ما طبخ من عمل غير المرأة التي اعتمدوا عليها بالقراءة والتَّعميد، كما تقدم. ويحرم بيع المال المعدوم إلا أن يكون منقوماً([249]) حاضراً.

الفصل العشرون: الأَرض والسَّماء والشَّمس والقَمر

يقولون: إن الأرض مدورة على شكل نصف كرة، والسَّماء فوقها مثلها مدورة أيضاً، وكان أطراف السَّماء ملاصقة بالأرض فيكونان كمثل كرة، والشَّمس والقمر في الفضاء القائم بينهما متحركان بـ «ايار برابا» أي بهواء داخلي و«ايار كوايه» أي هواء خارجي.

والشَّمس هي أخت القمر، فالشَّمس المسماة ملك «شماس»([250]) كأنها تسير في سفينة كبيرة ذات سبعين طبقة، ويقدر علوها بطول عرضها، وفيها أربعة حراس جالسين في أربعة أركان السَّفينة محافظة للملك شامش، والخالق أي الرَّبّ يقول متعهداً له:

إني أرفعك إلى أعلى من مرتبتك هذه على أن تقضي على العالم كله، وهو لا يزال سائراً بعمله داعياً ربه هلاك العالم وموتهم، أما «هيبل زيوا»([251]) أحد الثَّلاثمائة والسِّتين شخصاً المار ذكرهم؛ فيوصيه بمحافظة العالم صباحاً وعصراً ومساءً.

والمحافظون الحراس الأربعة لا يعلمون بهذه الوصية، ولا يرى أحدهم الآخر. وكذلك عكس القضية للقمر المسمى «ملك صرة» من توصية الرَّبِّ له بهلاك العالم كما مر للملك شامش، وكلاهما لا يدري بما أوصاه به الرب، ولا تزال الشمس والقمر سائرين نحو هذا المقصد والغاية.

الفصل الحادي والعشرون: السَّنة والشُّهور والأَيام والأعياد([252])

السَّنة ثلاثمائة وستون يوماً([253])، وكل شهر ثلاثون يوماً، والسَّنة اثنا عشر شهراً. وتبدأ السَّنة مِن شهر نيسان([254])، أيار، سيوان، تموز، (آب)([255])، أيلول، تشرى، شردان، كانون، طباث، شباط، آذار([256]). وقد وافق في هذه السَّنة أول يوم آذار اليوم العاشر من شهر أكتوبر/تشرين الأول سنة 1925.

ولهم تواريخ متعددة، منها مبدأ خلقة آدم (ع، م) وهبوطه الأَرض، والثَّاني الطَّوفان، والثَّالث ولادة يحيى، وهو الأكثر استعمالاً، وهذه السَّنة صادفت سنة 1925 لميلاد يحيى، وإنها توافق السَّنة الميلادية المسيحية، لأنهم قالوا: لا فرق بين ولادتهما([257]) إلا ستة أشهر، وأكثر مِن هذا استعمالهم التَّاريخ الهجري لاعتقادهم بصحته وضبطه، ويستعملونه في أكثر معاملاتهم الرَّسمية والدِّينية.

عطلة يوم الأحد

تنقطع الصَّابئة عن أعمالها وأشغالها في كل يوم أحد([258])، وهم يعظمونه، ويعتقدون أنه ينزل فيه مِن عالم الأنوار «هبشبه»([259])، فيعمد أهل «مشوني كشطه»، وهذا هو أحد الأشخاص السَّماويين المسبوقي الذِّكر. أما أعيادهم فكثيرة، والمشهور منها:

عيد البنجة

ومن أعيادهم عيد البنجة أو الطَّنجة([260])، والأولى فارسية، أي الخمسة وهو خمسة أيام، يكون بين شهري كانون وطابيث([261]). وقد صادف في هذه السنة يوم 7 أبريل/ نيسان سنة 1925 و13 رمضان سنة 1343(هـ). وأصل اسم هذا العيد بالسِّرياني([262]) «همشولي برونايا»، وكلُّ يوم مِن أيام هذا العيد مخصوص لأحد الأشخاص السَّماويين.

فاليوم الأول إلى «اتشي اتره»، واليوم الثَّاني إلى «جشلام ربه»([263])، واليوم الثَّالث إلى «موتاشركته »، واليوم الرَّابع إلى «انواطه زيوه»، واليوم الخامس إلى «بهرام ربه»([264]). وهذا العيد خص لتقديس الكنائس([265]) من قبل القسيسين، ليعمّدوا فيها، ويجب في هذا اليوم أن يتعمّد كل واحد منهم امرأة ورجلاً.

ويلبسون فيه ألبسة بيض([266])، ويمرون ماشين في الأزقة والطُّرق حافي الأقدام. ويجب أن ينغمس كل منهم إذا أراد أن يأكل ثلاث مرات في الشَّط عند تناول كل طعام. وفي هذا العيد يذبحون الذَّبائح، ويعملون دهن السِّمسم الذي يدهنون به المعمّد، ويسمونه الدِّهن المقدس.

العيد الصغير([267])

وهو ثلاثة أيام، يبتدئ مِن اليوم الثّامن عشر مِن شهر أيار الصَّابي، الموافق ليوم 25 نوفمبر/تشرين الثاني 1925، التاسع من جمادى الأُولى سنة (1344هـ)، يذبحون فيه الذَّبائح، ويعملون بعض الأعمال الخيرية لموتاهم.

عيد الكرصة أو عيد التكريس([268])

ويسمى عيد «بروانا»([269])، وقد صادف حلوله هذه السَّنة يوم الأحد في 9 أغستوس 1925، 19 محرم 1344، إلى يوم 11 أغستوس 1925، أي ثلاثة أيام، قالوا: «إن الله خلق الدنيا، وهبط إليها أبو البشر وتكلك بالسريانية([270])، ومحا خطيئة كان في مثل هذا اليوم، وهذا المشهور على الألسن».

والصَّحيح ما أخبرني به أحد علمائهم بدرجة تلميذا([271]): أن سبب الاحتفاء الذي سأسرده عليك، هو أن مثل هذا اليوم يكون عيداً عند أهل عالم الأنوار «آلمي دنهوره». إن الملك الموكل بالماء يصعد إلى «آلمي دنهوره» للاشتراك في العيد المذكور، وترك أعمال الدُّنيا، وكذلك غيره من الملائكة في الأرض، فصعوده اثنتا عشرة ساعة، وبقاؤه هناك اثنتا عشرة ساعة، وهبوطه كذلك.

وخوفاً من أن يصاب الماء بأذىً يدخرون ما يحتاجون مِن الماء. وكيفية هذا العيد هو أنه يُستحضر في عصر اليوم، الذي قبل العيد، لكل شخص على عدد مِن في الدَّار مِن النِّساء والرجال، طبقاً من خزف الطَّين المفخور، ويملؤها فاكهة رطبة ويابسة كالتفاح والخوخ واللوز وغير ذلك، ويحفظونها ولا يمسونها إلا بعد انقضاء العيد فيأكلونها.

وفي العصر المذكور يدخرون مِن الماء ما يحتاجونه ويملؤون جميع أكوابهم وقدورهم، ولا يخرجون إلى النَّهر كي لا ينجسوا، ولا يلمس ساق شجرة أو حجر، ويسهرون ليلتهم لئلا تصيبهم جنابة فينجسوا.

ثم ينظر علماؤهم في كتب التَّنجيم ككتاب «ادرافشه يهيى»([272])، وغيره، ليعلموا ما سيقع في هذه السَّنة، ويتركون مواشيهم وأغنامهم عند جيرانهم الإسلام، أو غيرهم، ليحفظوها لهم، والإسلام يأكلون لبنها، ولا يذبحون فيه الذَّبائح.

الفصل الثَّاني والعشرون: الزَّواج الطَّلاق

الخطبة والعقد

إذا أراد الرَّجل أن يتزوج بامرأة يرسل مَن يعتمد عليه إلى أبيها، أو وليّها، ويخطبها منه، وبعد أن يتم الرِّضا يسمّون مهرين، مقدماً ومؤخراً. ولم يكن المهر أساساً في شريعتهم، وقد أخذوه مِن الإسلام. وربما يعطي (الرَّجل)([273]) المهرين سوية، ولا يبقى مديوناً للزَّوجة([274])، فعنئذ يراجعون قسهم، ويحضرها للتَّعميد إلى الشَّط، ويلبس كل مِن الزَّوجين الرِّستة والسِّفيفة([275])، ويكون التعميد بمعرفة قسٍّ، واثنين مِن الشَّمامسة.

فالقس من درجة «كَنزبره»، والشَّماسان بدرجة تلميذا، ويدخلان الماء، ويتغمس([276]) كلٌّ منهما ثلاث مرات في الماء، ثم تخرج المرأة، وهي حاملة بيدها مصباحاً تشير به إلى أنها عروس معمّدة كي لا يقربها أحد فتنجس.

فتذهب والزَّوج إلى غرفة معمولة مِن القصب، ومصنوعة على أحسن طراز([277])، وفيها عدة مبخرات، فيحضر الزَّوجان، والقس والشَّماسان، وكثير من الأهالي، وهناك يبتدئ القس بالقراءة السِّريانية([278])، ويوزع على الحاضرين قدر خمسة وأربعين قرصة خبز ليأكلوها، وإن لم يأكلوها تُعطى إلى الفقراء، أو ترمى في النَّهر.

ثم تلبس الزَّوجة ما لبسته ساعة التعميد، أو مثله، وتجلس على فراشها، فيتقدم العالم ويأخذ الزوجة ويلاصق ظهرها بظهره، ثم تنطح الزَّوجة رأس الزَّوج برفق ثلاث مرات بفاصلة، ويتخللها قراءة سريانية([279])، ثم يكسر كوزين معدين للماء، اعتقاداً منهم أن الشَّرَّ يذهب بكسرهما.

الحيض والنّفاس

أقل الحيض ثلاثة أيام، وأوسطه خمسة وأكثره سبعة أيام، والنِّفاس ثلاثون يوماً. ولا يحل للزَّوج أن يجمع بزوجته ولو طهرت عصر اليوم السَّابع أو الثَّلاثين، واغتسلت فلا يحل له جماعها خشية عودة الدَّم، ولا يجوز للحائض لمس شيء، فإن لمسته تنجس.

وبعد انقضاء حيضها تذهب إلى الشَّط، وتنزل في الماء هي وألبستها، وتنغمس في الماء ثلاث مرات فتطهر. أما النُّفساء فإنها في الأسبوع الأَول لا يجوز لها أن تجتمع مع أحد وتخالطه وتلمس شيئاً، وكل ما تلمسه ينجس.

فإذا مضى الأسبوع الأَول تذهب إلى الشَّط وتنزل فيه هي وألبستها، وتنغمس فيه ثلاث مرات، فحينئذ يجوز لها أن تختلط مع النَّاس، ولا يجوز لها أن تطبخ، فإذا انقطعت الثَّلاثون يوماً تنزل في الماء أيضاً هي وألبستها ثلاثاً، فعندها تطهر، فيحل طبخها ومخالطتها وجماعها.

العدة

تعتد المرأة بعد الطَّلاق والوفاة ثلاثة أشهر فقط، ولا تتزوج خلالهن بزوج ثانٍ.

الطَّلاق

يحضر الرَّجل الذي أراد طلاق زوجته إلى القس، ويعرض عليه ذلك، وهي أيضاً تكون حاضرة معه، فيكرر القس على الزَّوج عدم طلاق زوجته، وأنه مِن الأُمور التي لا يرضى بها الرَّبُّ، فإن أصرا على ذلك يرسلهما إلى عالم مسلم([280])، فيطلق الزَّوج زوجته بحضوره.

وقد سألت الشَّيخ عن سبب ذلك فقال: «للاعتماد وحصول المرام بالصَّحة التَّامة». ثم يرجعا إلى القس([281]) وعنده يقول الزَّوج ألفاظاً سريانية([282])، ويوقعا على كتابة يحررها القس لها فيتم الطَّلاق.

تعدد الزَّوجات

يجوز للرَّجل أن يتزوج بما يشاء مِن النِّساء بلا حصر([283])، بشرط أن يساوي بينهن في الأكل والشُّرب والسُّكنى واللِّبس. وسيأتي في العقوبات على الرَّجل لا يساوي بين أزواجه، ولا يجوز أن يتزوج بأختين معاً.

هل تجوز مناكحتهم عندنا؟([284])

لا تجوز مناكحتهم عندنا لأنهم ليسوا أهل كتاب، كما تقدم([285]).

الفصل الثَّالث والعشرون: الأَموات وما يتعلق بالغسل والدَّفن

إذا احتضر المريض يُغسل ويُكفن، وهو في حالة النَّزع، ولا يمس وهو ميت، ومن لمسه لا يُطهر، ولو اغتسل بجميع مياه البحار أو تعمد ألف مرة. ويحمله أربعة أشخاص إلى القبر مِن روحانيهم بدرجة «حلالي» أو غيره، ثم يحضر إلى القبر.

القبر([286])

هو حفرة مستطيلة، وتنبش عند رأس الميت حفرة صغيرة يعبر عنها «لغم»، يدخل فيها رأس الميت إلى صدره، فيوضع الميت فيها على ظهره ووجهه ورجلاه متوجهان إلى الجدي، ثم توضع الأحجار على كفنه مِن صدره إلى رجليه، ثم يلقى التُّراب عليه.

ولم أر قبراً بني بالحجارة والطَّين والجص، ولذا لم يعرف هل يسنم القبر أو يربع، لأنها كلها دوارس حتى الجدد منها.

والسَّبب في وضع الأحجار على كفنه على ما تناقله كبيرهم وصغيرهم، وهو أنه: كثيراً ما وقع لهم في ممات أحدهم، وبعد دفنه توفي كثيراً من أهل بيته، وحينما يذهبون إلى قبره وينبشونه يجدون الكفن مجتمعاً في فيه، فقالوا: إن سبب موت أهله هو اجتماع الكفن المذكور.

ولأجل دفعه صاروا يضعون على الكفن أحجاراً كي لا يجتمع. وإنما يوضع التراب على كفنه بلا حائل لما سبق من أن مندائي رمي بقبضتين من التُّراب على جسد يحيى فكانتا قبراً له.

البكاء والنياحة

ويحرم البكاء والنياحة على الموتى([287])، لأنهم يعتقدون أن كل قطرة مِن دمع الباكي تكون نهراً أمام الميت في طريقه. وقد سبق أن يحيى أوصى زوجته أن لا تبكي، وأن تجمع القساوسة إلى غير ذلك مما تقدم ذكره. وعندهم الفرح ساعة الموت عليه أولى من الحزن. وبعد رجوعهم مِن دفن الميت تجتمع الصَّابئة في داره يعزون أهله وذويه، ويقرأون له القراءة، ويعملون له الخيرات خمسة وأربعين يوماً.

أول مصير الأموات والعقوبات الأَخروية([288])

إذا مات الصَّابئي، مهما كان في حياته صالحاً أم طالحاً، فلا بد وأن تذهب روحه إلى «المتروثات»([289]) (فأما إلى النَّعيم وأما إلى الجحيم)([290]). وتمر بطريقين تجتازهما بخمسة وأربعين يوماً، ولهذا فهم يعملون الخيرات، فإن كانت مِن الصَّالحين فتذهب وتقطع هذه المسافة وحدها.

وإلا فيقودها اثنان مِن أصحاب الجحيم، فيجتازا بها «المتروثات». وتقوم واقفة أمام «اواثرا»، وإن كانت صالحة أرسلها إلى نهر يسمى «دخشوشه»، فيعبر إلى «آلمي دنهوره» أي عالم الأنوار، وهو مقام السَّعداء، ويقيم هناك في نعيمه.

وإن كانت نفس رجل مِن أهل الشَّقاء فترسل إلى «ابتاهيل»، ويقيم هناك في «آلمي دهشوخه»([291])، ويكون محله شمالاً «اواثرا »، يرى عذابه مدة يعينها له «اواثرا»، وبعد إتمام المدة يذهب إلى محل النَّعيم والسَّعادة. ولا جزاء للمجرمين في الدُّنيا، وليس

لأحد حق بتجزيتهم، وإقامة الحدود عليهم، ولو سرق أو زنى أو غير ذلك.

أما عذاب المجرمين فيختلف حسب الجرائم والخطئات([292]) التي يرتكبها أربابها، وقد قرأ الشَّيخ([293]) في كتاب «ادرافشه يهيى»([294]) ما ترجمتُه ملخّصاً:

إن بعض الصَّابئة سألوا يحيى، عليه السَّلام: ما جزاء مَن يعامل النَّاس بالرِّبا، ويشرب الخمر بين الرَّاقصات، ومنه يتولد الزِّنى؟ وما جزاء مَن يزني بجارته، وتلد مِن ذلك وتدفنه وهي تنظر إليه، والمدفون ينظر إلى الله، ودفنها له خشية إفشاء السر والعار؟ وما جزاء مَنْ يشم الطَّيب ولا يحمد الله؟ وما جزاء مَنْ يتزوج بامرأتين ولا يساوي بينهما؟ فأجابهم عن كلِّ سؤال بجواب، غير أني لم اضبطها على التَّرتيب والمقابلة.

وقد علمت أن جزاءه يكون الحبس في جبل مظلم، وإكساءه ثوباً مِن ثلج أو أثواباً من نار وثلج، ومنهم مَنْ يمشط جلده بمشط من حديد حتى تذهب خطأاته (هكذا). وعلمت يقيناً أن الجزاء لمن لم يساوِ بين زوجاته يلبس ثوباً مِن نار وثلج.

وقد اعتقدوا في العذاب بأنواع كثيرة كالعذاب بالسُّموم الحارة، أو شدِّ عنقه بسلسلة. ومنهم مَن يُسحق بين صخرتين عظيمتين حتى يكون جسمه وعظمه واحداً، ثم يرجع إلى ما كان. ومنهم مَنْ تُملأ راحتاه ناراً، وتبقى مشتعلة حتى تكون راحتاه حجراً.

وليس للمجرمين عذاب مؤبد إلا الزَّاني بالبِكر، والقاتل، ومَن خرج مِن دين الصَّابئة لدِين آخر، فإن عذابهم مؤبد، والعقوبات كثيرة يقف القلم عن حصرها. وأزيدك علماً أن مَن مات فجأة مات كافراً([295]). عصمنا الله تعالى.

الفصل الرَّابع والعشرون: الوصية وتقسيم المواريث([296])

لا تجوز الوصية عندهم، ولا تنفذ إلا إذا أعطى شيئاً مِن ماله سراً. أما إذا رآه أحد حرم ذلك العطاء. وإنهم يقولون: أعطِ باليمنى على أن لا تدري اليسرى، ويجعلون ذلك من باب الصدقة.

أما تقسيم المواريث، فقال الشَّيخ: ليس في أساس تشريعهم صورة لتقسيم المواريث بينهم؛ غير ما يجب على الميت أن يقدم أكبر أولاده ويعطيه أمواله، المنقولة وغير المنقولة، ليتولى صرفها على سائر الورثة، وهو كرئيس عليهم قائم مقام المتوفى في ذلك.

ولما ظهرت الدِّيانة الإسلامية تركوا هذه الحالة وأخذوا بتقسيم المواريث على ما جاءت به الدِّيانة الإسلامية؛ إذ هي أحق وأعدل للوارثين، وعليه مشت الحالة حتى اليوم، في ما بين الوارثين مِن الصَّابئة، وحتى ظهور المسيح (عليه السَّلام).

الفصل الخامس والعشرون: وظائفهم الرَّئيسية

إن أهل هذه الملة كلهم مشتغلون بالكسب والصِّناعات، كالنِّجارة والحدادة والصِّياغة، وهي أحسن صنعة عندهم، ويجيدون صياغة الفضة المنقوشة المحفورة والمملوءة من المينة الملونة، من السَّوداء والصَّفراء والحمراء وغيرها.

أما السَّوداء فإنها تصنع بالنِّسب الآتية: عشرة مثاقيل مِن صُفْر([297])، وثمانية من نحاس، وثلاثة مِن فضة، وبوزن الكل، أي واحد وعشرين مثقالاً مِن الكبريت، فيسبك الفضة والصُفْر أولاً، ثم يمزج به الرَّصاص، ثم يرمى فيه الكبريت أولاً فأولاً.

ثم يسحق بالمسحقة «الهاون» ويعجن بالماء والبولاق فيملأ النُّقوش التي في المصوغات الفضية، وهي رئيسة أشغالهم وصنائعهم.

ولا صحة لقول مَن قال: إنه يبخلون بتعليمها لغير أهل ملَّتهم، وقد اشتهر بهذه الصِّناعة وفاق كل مَنْ اشتغل بها زهرون مِن سكان العمارة، وهو من أقرباء الشَّيخ.

الفصل السّادس والعشرون: خدمتهم للإسلام في الصَّدر الأَول

لقد خدم الكثير مِن الصَّابئين الإسلام في صدره، وقد برع الكاتب والشَّاعر والمؤرخ والمنجم والمحاسب وغير ذلك. فمنهم أبو إسحاق إبراهيم بن هلال([298]) الكاتب المشهور، وقد رثاه السيَّد الشَّريف الرضي (رحمه الله) بقوله:

أعلمت مَن حملوا على الأَعواد

أرأيت كيف خبا ضياء النَّادي([299])

إلى آخر القصيدة، وذلك سنة (380 هـ). ومنهم حفيده أبو الحسين هلال بن المحسن([300])، أخذ العلم عن أبي علي الفارسي النَّحوي([301])، وعلي بن عيسى الرُّماني([302])، وأبي بكر أحمد بن محمد الجراح الجزار([303])، وأسلم في آخر عمره([304]). وله كتاب الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان. توفي سنة 447 هجرية. ومنهم ولده غرس النِّعمة أبو الحسن محمد بن هلال([305]) وكان فاضلاً، وله كتاب اسمه «الهفوات النادرة من المغفلين المحظوظين». وثابت بن قره الحراني([306]) كان صيرفياً، ثم طلب العلم والفلسفة والنجوم، وله كتاب سرياني العبارة في مذهب الصَّابئة، وقد خدم المعتضد العباسي، وكان يسكن حران قبل خدمته. وابنه سنان بن ثابت([307]). وكذا حفيده ثابت بن سنان([308]) وغيرهم. وأكثرهم شهرة أبو إسحاق المتقدم ذكره.

ولا تجد اليوم فيهم مَنْ له إلمام بعلم إلا القليل النَّادر مِن علمائهم، وهم معدودون، وبعض الشُّبان المحدثين، وهؤلاء بواسطة دخولهم المدارس الرَّسمية بنية نوال وظيفة من وظائف الحكومة. وأزيدك علماً أن الصَّابئي محروم البتة مِن معرفة أمور ديانته لكونها محصورة عند العلماء لا يطلع عليها أفراد الملِّة لعدم معرفتهم القراءة والكتابة إلا ثلاثة في المائة([309]).

الفصل السّابع والعشرون: التَّحية والسَّلام

يُسلّم الصابئي على صاحبه ويحيّيه وقت الصَّباح بقوله: «صباح طا ولاوخ»([310])، إذا كان المُسَلّم عليه واحداً، وإلا فيقول «طاولا وخون» أي أصبحت وأصبحتم بخير، فيردّ عليه بقوله: «هيت هدى شاولاوخ».

ويقول المُسَلِّم وقت الظُّهر: «سوثن نهويلخ»، أو «سوثن نهو يلخون» في الأفراد والجمع، ويردون عليه بمثل ما قال. ويقول المُسَلِّم وقت العصر: «بين طاولاوخ» و«بين طاولا وخون»، أي أمسيت أو أمسيتم بخير. وفي زيادة المحبة بالمُسَلِّم عليه يقال: «اهيث اثبت ماري زهر لالخ»([311])، أي جئت أهلاً وماري يغفر لك.

خاتمة

هذا آخر ما تيسر لي جمعه مِن ديانة الصَّابئة، وأسأله سبحانه وتعالى العصمة مِن زلل الشَّيطان، وأن يجعلني مِن المتمسكين بشريعة سيد الأكوان، وأرجو العفو مِن الأخلاء عمَّا وقع مِن السَّهو والنسيان. والحمد لله رب العالمين.

رشيد الخيُّون

الصَّابئة المَندايون

في فِقه وتاريخ الإسلام

مداخلة

مداخلة ألقيت في المؤتمر المندائي الثَّاني المنعقد باستوكهولم (9-11 أغسطس/ آب 2002)، بحضور رئيس الطَّائفة بالعراق كَنزبرا ستار جبار الحلو، كما قدمت بدعوة من الجمعيات المندائية بلندن، ومالمو، وهولندا، ونشرت في مجلة «النَّهج»، العدد (29) شتاء 2002.

مقدمة

يزخر الفقه والتاريخ الإسلاميان بمسائل ومرويات كثيرة حول الصَّابئين المندائيين. كان المصدر الأول لهذا الاهتمام القرآن الكريم، في ثلاث سور من سوره: «البقرة»، «المائدة» و«الحج». ثم حضورهم في حاضرات العراق العباسي، مثل: واسط والبصرة وبغداد. يضاف إلى ذلك دورهم في الحياة الثقافية أيام العباسيين. ولقب الصابئي المندائي أو ابن مندة كان معروفاً في معاجم الرجال والفقه والقضاء الإسلامية.

ومن هؤلاء، حسب معجمي «سير أعلام النبلاء» لشمس الدين الذهبي، و«شذرات الذهب» لابن عماد الحنبلي: الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن منده (ت395هـ)، الملقب بجوال الدنيا لكثرة أسفاره، حتى عُرف بطواف الدنيا. والفقيه أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد بن منده (ت470هـ)، ومنده لقب جده الأعلى. والمحدث عبدالوهاب بن الحافظ (ت475 هـ). أبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار الواسطي المندائي (ت605هـ)، المعروف بمسند أهل العراق وبالمُعدّل، وكان والده قاضياً. ناهيك عمَّنْ عُرف بالصابئي من الكُتاب والأطباء والعلماء. ودلت ألقاب هؤلاء أنهم كانوا مندائيين، قبل إسلامهم أو إسلام آبائهم.

وإن طغت تسمية الصابئة على هؤلاء، إلا أن اسمهم المندائي هو الأصل، وهو نسبة إلى منادهي الملاك الأول، أو رمز المعرفة أوالحياة الأولى. وبهذا عُرف بيت عبادتهم بالمندي، أي معرفة الله، وكشف عوالم الكون للإنسان. لذا قد تعود أُصول العرفانية أو الأغنوصية إلى هذا الدين.

وإذا علمنا أن الشيخ معروف الكرخي كان صابئياً، علمنا التأثيرات المندائية العرفانية في التصوف الإسلامي. قال الخطيب البغدادي: «أخبرنا محمد بن أحمد بن روق، قال: سمعتُ أبا بكر محمد بن الحسن المقرئ المعروف بالنقاش، وسُئل عن معروف الكرخي، فقال: سمعتُ إدريس بن عبدالكريم يقول: هو معروف بن الفيزران، وبيني وبينه قرابة. وكان أبوه صابئاً من أهل نهر بان من قرى واسط»([312]). وقال ابن تغرى بردى: «كان أبواه من أعمال واسط من الصابئة»([313]).

وما زال للغة المندائية أثرها في اللهجة العراقية الجنوبية، ففعل «طبَّ»، أي دخل، أصله طبا المندائية. ومفردة شيلة، غطاء رأس المرأة الجنوبية أصلها «شيالة»، وهي قطعة من اللباس الديني المعروف بالرستا، وهي خاصة بالنِّساء. أما الرجال منهم فيعتمرون البرزنقا، أي العمامة.

ويستعمل الجنوبيون المفردة المندائية «زوطة»، أي الصغير، يسمون بها نوعاً من الطَّير ضئيل الحجم زيطة. وتكاد لا يخلو غناء أهل الجنوب أو العراقيين عامة من مفردة «ويل» المندائية، وتعني النار أو الجحيم أو العذاب بشكل عام. وأي مغنٍّ عراقي لا يستهل غناءه بعبارة «ويلاه ويلاه»!

وما اسم مدينة ميسان إلا اسم مندائي أي «مي سيانة»، وتعني الماء الطّيني، وقيل تعني القصي أو البهي، واسم موسى «مي سا» أي الغارق([314])، وهو إشارة إلى عبور موسى واليهود.

اتخذ المندائيون الصمت سبيلاً قويماً في الحفاظ على كيانهم الديني ولغتهم المندائية عبر دهور طويلة. خدمهم غموض لغتهم الدينية، التي لا يفقهها مواطنوهم من الأديان الأُخرى. يتهامسون بها للرد على سخرية جاهل ينال من عقيدتهم، أو معتدٍ قصد ديارهم لفرض ما لا يريدون وما لا يطيقون.

فكثيراً ما يحدث الاعتداء عليهم لقلّتهم، ولشبهات عقائدية تدور حولهم، أقلها أنهم يعبدون الكواكب والنجوم، أو يزهقون أرواح المحتضرين منهم، هذا ما شاع عنهم بجنوب العراق.

والحقيقة، من شعائرهم غسل المحتضر وإكساءَه الكسوة الدينية البيضاء المعروفة بالرسته، اعتقاداً منهم أن ذلك يمُكِّن روحه من الصعود إلى مشوني كشطا (المكان السامي أي الجنة) بسلام. وقال بعض الفقهاء بنجاستهم لأنهم مشركون. وحكم هؤلاء حسب الآية القرآنية: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}([315]).

يقال هذا على المندائيين على الرغم من إفراطهم في النظافة والطّهر. وأباح البعض الآخر من الفقهاء قتلهم، رغم وداعتهم وميلهم للسلم. فلرقّتهم يعتذرون ويستغفرون أثر ذباحة الطَّير والحيوان.

إن صحت العبارة أن المندائيين أثر من آثار التاريخ الحية. فوجودهم يذكر بأنبياء ورسل. والصابئة إن ذكروا في الكتب المقدسة لم يذكروا بأكثر من تلميح واستشهاد وعبرة من الماضي.

فقول المندائيين: إنهم أقدم ديانة سماوية على وجه الأرض، وإن كتبهم هي صحف سادة البشر الأولين: كآدم وشيت وإدريس ونوح، يرفعهم إلى مصاف بدايات الأديان والشرائع الموحدة في التاريخ.

لهذا يمكن القول: إن العديد من الديانات نحلت من منحلهم. ومن الصعب بمكان أن يُعرف للصابئة المندائية مؤسسٌ، وقد ميّزهم ذلك عن ديانات عديدة. وكم يوافق سلوكهم الروحاني ما قاله فيهم أبو الفتحِ محمد بن عبدالكريم الشهرستاني: «إنما مدارُ مذهبِهم على التعصبِ للروحانيينَ»([316]). قالها وكأنهم قصد صابئة اليوم.

ويبدو أن غرض الشهرستاني من نقل، أو إبداع، الحوار بين الصابئة والحنفاء([317]) هو تأكيد ميل الصابئة إلى الرسل من الكائنات النورانية، أي توغلهم في الروحانية، مثل الملاكين: منادهي، وهيبل زيوا (جبرائيل). فالبشر لخطاياهم وما يتعلق بأبدانهم من فساد، لا يُصلحونَ للوساطةِ بينَ السماء والأرض.

قالَ الشَّهرستاني موضحاً عقيدة الصابئة في الوصول إلى معرفة الله: «إن للعالمِ صانعاً، فاطراً، حكيماً، مقدساً عن سمات الحدثان. والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله،

وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربينَ لديهِ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً، وفعلاً، وحالة»([318]).

بيد أن ما أتى عليه الشهرستاني، من عدم اعتراف الصابئة بأنبياء من البشر، يفنده ما ورد في كتبهم من الصحف التي نزلت على آدم، والكتاب الذي نزل على أحد النوصرائيين، وهو إدريس (دنانوخت). لكن يؤكده، في الوقت نفسه، أنهم لم يسمّوا أحداً من البشر بالنبي أو الرسول، فالكل عندهم كانوا نوصرائيين، من آدم إلى يحيى بن زكريا. لقد أشارت الكتابات الصابئية المندائية «إلى الاعتقاد بأن المعرفة أو العلم الرَّباني –مندادهيي– إنما يؤتيه اللهُ عبادَه المختارين الصادقينَ (بهيرا زدقا)، إما وحياً وإما إلهاماً.

وذلك هو صوت الحي الأقدم (شوت هيا قدمايي)، أو فيضاً سماوياً وكشفاً، وهو التجلي، أو بواسطةِ رسلٍ أثيرين نورانيين»([319]).

أشار المندائيون، ربما لاهتماماتهم الفلكية، إلى وجود بشر خارج كوكب الأرض. فالكواكب السماوية عندهم، ما دون عالم النور، اتخذت سكناً للبشر والكائنات النورية. وترشد كتبهم الدينية إلى عوالم «يسكنها بشر مثلُنا، وتركز بالدرجة الأولى على عالمِ العهدِ (مشوني كشطا)، وتُذكِّر أيضاً أن البشرَ في هذا العالمِ لا يختلفونَ عنا كثيراً. وعلى هذا الأساسِ فقد أمر «هيي ربي قدمايي»، الحي الأزلي، بنقلِ بناتِ آدمَ من هذا العالم «اره اد تبيل»، الأرض، ويجلب زوجات من عالم مشوني كشطا لأولاده»([320]).

ويصفُ غضبان الرومي، وهو واحد من بين أبرز المثقفين المندائيين العراقيين، مستقبل العلاقة بين إنسان الأرض وإنسان الكواكب الأخرى، مستفيداً من تصورات ديانته.

قال: «من ذريتهن تكوّن الإنسان الحالي، الذي أخذ يزحف من عالمنا هذا نحو الكواكب الأخرى. وليس ببعيد أن يصل في آخر المطاف إلى عالم «مشوني كشطا»، وينزل ضيفاً على أخواله هناك، مستقبَلاً من أبناء عماته»([321]).

كان آدم أباً للبشر وحواء أمهم. لكن البشرية، حسب الكتب المندائية، فنيت مرات بكوارث سبّبها عالم الظَّلام المنحوس، وما فيه من شر انتقل إلى الآدميين عبر مادة الطَّين التي منها جُبل جسد آدم. وفي كل فناء يُنجي الله رجلاً وامرأةً ليجدد فيهما الجنس البشري. «فبعد شيت قضي على هذا العالمِ بالحرب، ولم يبقَ منه إلا رجل وامرأته، هما رام ورود، وبعد عشرات الألوف من السنين فني العالمِ بالنار، ولم يبقَ منه إلا شوربي وزوجته شور هيبل، وبعد عشرات الآلاف من السنين جاء الطَّوفان، ولم ينجُ منه إلا نوح وزوجته (انهريتا) وابنه سام»([322]).

وحسب أغلب الأديان، ومنها المندائية، إن هذه الكوارث ضرورية لغسلِ الأرض من خطايا البشر. قال شاعر البشر (على حدِّ عبارة معروف الرَّصافي) أبو العلاء المعري (ت 449 هـ)، وكأنه قرأ الكَنزا ربا وتبحر فيها([323]):

والأرضُ للطُّوفانِ مشتاقةٌ

لعلها مِن درنٍ تُغتسَل

قد كثرَ الشّرُّ على ظهرِها
واتُّهِمَ المُرسِلُ والمُرسَل

إن اعتقاد المندائيين بوجود بشر يعيشون على الكواكب العليا قد يقود إلى علاقة ما بنظرية أفلاطون، «المُثل» أو «النَّماذج»، وبالتالي يقود إلى صلة ما بالفكر اليوناني بشكلٍ عام.

لا ندري، هل كان هذا التوافقُ توارد خواطر، أم بتأثيرات فلسفية مباشرة. في هذا المجال قد يكون للحرانيين في نقلها دور ما. ولا يستبعد أيضاً في أن يكون الأمر امتداداً سومرياً وبابلياً، حيث القول بوجود مجتمع الآلهة، ومكانه العالم العلوي، وخلق البشر على هيئتهِ ونظامه.

جاء في النصوص المندائية على لسان المتوفي ما توافق مع مُثل أفلاطون: «أذهب إلى شبيهي، وشبيهي يأتي إليَّ، يتذكرني ويحتضنني، كما لو أنني خارج من السجن».

تناول الفقهاء والمؤرخون المسلمون، شيعة وسُنَّة، الدين المندائي، واختلفوا حوله في أن يكون أصحابه من أهل الكتاب أو شبه الكتاب. واختلفوا أيضاً حول جواز أخذ الجزية. وبالتالي الاعتراف بالمندائية كديانة لها حق بالحماية من قِبل المسلمين والعيش بأمن بينهم.

إلا أن أكثر المتشددين ضدهم كانوا من فقهاء الشافعية. بينما كان للفقهاء الحنفيين والشيعة فتاوى وآراء إيجابية منهم، اعتماداً على ما ورد في القرآن الكريم بخصوص الصابئة، وما ورد في الكتب الصابئية، حسب قراءة آية الله علي خامنئي لها.

كذلك كانت لرجال الدين الشِّيعة صلات صداقة ومودة على غرار الصداقة بين الشخصية الشيعية البارزة الشريف الرضي وبين الشخصية الصابئية البارزة الكاتب إبراهيم الصابئي.

يتناول هذا الكُتيب معاملة الفقه الإسلامي، وروايات التاريخ في أمر قوم ما زالوا يحتفظون باللغة الآرامية في طقوسهم الدينية. ويرون أنفسهم أنهم أتباع آدم أبي البشر. فالمندائيون أهل دين سماوي، توجهوا إلى غاية السموات بعقولهم وأفئدتهم، وبفكرة السفن الكونية، وبحارتها الكائنات النورية.

ولم يجعلوا الكواكب آلهة، بل هي عندهم أمكنة لكائنات النور والظَّلام. والله لديهم متعالٍ، عرشه يطوف فوق بحار النور النقية. ومثلما للأديان الأخرى معاريجها، لهم معراجهم، وجنتهم وجهنمهم أيضاً.

غير أن كل هذا كان مخفياً على المحيطين بهم. ولم يعرفوا منهم غير أنهم يعبدون الكواكب كامتداد لصابئة حران، أو يسجدون إلى كائن صاغ حروف اسمه الآخرون، عن جهل، من العبارة المندائية المقدسة «بشميهون اد هي ربي»، وتعني باسم الحي ربي. مثلها مثل عبارة المسلمين «بسم الله الرحمن الرحيم»، أو باسمه تعالى.

وإذ جعل المسلمون الرحمة صفة الله الأولى، يطلبونها منه في مستهل كل عمل، جعل المندائيون الحياة صفة دائمة يذكرونها في مستهل كل عمل وحركة. فالحياة الأزلية، حسب كتابهم، هي الفارق الأكبر بين الله والبشر.

الفصل الأول: آراء الفقهاء

هل من خلاف وتعارض بين ما ورد في القرآن وبين ما كتبه المؤرخون وما تناقله الإخباريون، وما شرعه الفقهاء حول موقف الإسلام من الأديان الأُخرى؟ الإجابة على هذا السؤال تستدعي متابعة دين من هذه الأديان عبر الذاكرة الإسلامية، من تاريخ ورواية وفقه وممارسة.

وربما لعبت الظُّروف التي ورد فيها النص القرآني، والظُّروف التي استدعت المؤرخين والفقهاء تجاوز هذا النص، دوراً في هذا التعارض. فمعظم المفسرين الفقهاء صرحوا بنسخ الإسلام للأديان الأخرى بما فيها الكتابية، حسب الآية: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}([324]). ورسائل تعينيات رؤساء الطَّوائف الدينية في العصر العباسي أشارت إلى هذا بوضوح.

منها على سبيل المثال لا الحصر، جاء في مرسوم تعيين دانيال بن شمويل رأس مثيبة ليهود العراق، في عهد المستعصم بدين الله (ت656هـ)، حسب المذهب الشافعي، ما نصه: «رتبتك زعيماً على أهل ملتك من أهل دينك المنسوخ، الذي نسخته الشريعة المحمدية، لتأخذهم بحدود دينهم، وتأمرهم بما أمروا به في شريعتهم، وتنهاهم عما نهوا عنه في شريعتهم، وتفصل بينهم في وقائعهم، وخصوماتهم بموجب شريعتهم، والحمد لله على الإسلام»([325]).

بدأ التصريح بنسخ أو إلغاء الآخر عملياً في الجزيرة العربية بترحيل يهودها ومسيحيي نجران على يد الخليفة عمر بن الخطاب، لتبقى خالصة للإسلام. وبلا ريب أثر هذا الموقف سلباً في العلاقة مع أهل تلك الأديان. لكن من الصعوبة بمكان الغاء النص القرآني، الذي ضمن للكتابيين وغيرهم الاحتفاظ بدياناتهم وفق شروط استغلها عدد من الخلفاء، بداية من عمر بن عبدالعزيز، وحتى خلفاء بني العباس، وأمراء المغول بعد إسلامهم، ومن أتى بعدهم، للتضييق على أهل الذمة في لباسهم، ودور عبادتهم، وحياتهم الشخصية. وبطبيعة الحال، كان الإخباريون والفقهاء وراء هذه السياسات.

وبهذا لم يعترف فقهاء مسلمون للصابئة المندائيين، ما اعترف لهم به القرآن الكريم، كأهل دين، في ثلاث من سوره: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابئين مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}([326]).

وتتكرر الآية بالصيغة نفسها {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ (هكذا وردت) وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}([327]). وصيغة أخرى أُضيف فيها المجوس والمشركون، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابئين وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}([328]).

جاء في أسباب نزول الآية الأولى: أنها «نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، لما قدم سلمان على رسول الله (ص)، جعل يخبر عن عبادة أصحابه واجتهادهم، وقال: يا رسول الله كانوا يصلون

ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك تبعث نبياً. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال رسول الله: يا سلمان هم من أهل النار! فأنزل الله: إن الذين آمنوا والذين هادوا ... وتلا قوله: ولا هم يحزنون»([329]).

وروي عن عبدي الله ابن مسعود وابن عباس، وغيرهما: «نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي، وكان من أهل جندي سابور من أشرافهم»([330]). وهنا لا يقصد بديانة سلمان المسيحية أو اليهودية. فالعديد من اتباعهما دخل الإسلام قبل سلمان، وجاءت فيهما نصوص قرآنية كثيرة، لم تحتج إلى تدخل أحد، سلمان أو غيره.

ولا يقصد فيها المجوسية، وإن كانت منتشرة في بلاد فارس، حيث انحدار سلمان، لأن أسباب النزول خاصة بالآية 62 من سورة «البقرة»، والمجوس لم يُذكروا إلا في سورة «الحج» (17). لذا، فالاحتمال الوارد أن سلمان الفارسي واسمه الحقيقي، حسب الطَّبري، «مايه بن بوذخشبان بن ده ديره »([331]) كان صابئياً مندائياً، فللدين المذكور وجود ببلاد فارس، يوم كان العراق وإيران تحت حكم واحد.

يروى عن عائشة، كان للرسول مجلس مع سلمان الفارسي «ينفرد به في الليل حتى يكاد يغلبنا على رسول الله»([332]). ربما كانت هذه العلاقة سبباً في ورود شيء من اعتقادات المندائيين في الإسلام. فهم أحناف، بالمعنى المعروف للحنفية.

ومعروف أن تسمية الإسلام ممتدة في أديان أخرى. حتى ن فقهاء مسلمين يعدون الأديان التي سبقت الإسلام مراحل لدين واحد هو الإسلام. قال الفقيه السوداني المقتول محمود محمد طه: «بالإسلام جاء جميع الأنبياء من لدن آدم وإلى محمد»([333]). وهذا ما ورد في الآية: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ}([334]).

وورد في دعاء مندائي: «يا شلماني وامهيمنى... يا امهيمنى وشلماني... لا تيفخون من مملا لخون»([335])، ومعناها: «أيها المسلمون المؤمنون، وأيها المؤمنون والمسلمون، لا تتراجعون عن عهدكم الذي عاهدتم الله عليه». وبالتالي لا أجد سبباً يمنع من إشارة الآية: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}([336]) إلى مندائية إبراهيم الخليل.

ورغم أن الباحث الراحل هادي العلوي لم يشر إلى صلة لسلمان بالمندائيين، وأكد ما جاء في سيرة سلمان أنه كان مجوسياً ثم مسيحياً، إلا أنه بلا قصد أعطى إشارة إلى تلك الصلة، وهي الموقف من الكنز، يفهم ذلك من قوله: «وكنت رجحت في دراستي لمسألة تحريم الاكتناز أنها وقعت بتأثير من سلمان»([337]).

قد يعزز هذا الرأي أخبار زهد سلمان الفارسي المتماثل مع زهد كهنة المندائيين. ورد تحريم الاكتناز في الآية: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} ([338]).

وفي كتاب المندائية المقدس «الكَنزا ربا» أكثر من نص يحرم الكنز منها: «وأن حب الذهب والفضة وجمع الأموال، صاحبه يموت ميتتين في موت واحد»([339]). و«لقد ولعت بالفضة والذهب فألقيا بك في لجة اللهب»([340]). و«لقد شغلني ذهبي... وشغلتني فضتي، ذهبي رماني في الجحيم وفضتي أسكنتني في ظلام بهيم، وحليّ ومرجاني... آليت أن يصادقاني.. فأي شر علماني»([341]).

فسر محمد بن جرير الطَّبري (ت310هـ) تسمية الصَّابئين، حسب ما ورد في الآية 62 من سورة «البقرة» بكلام طويل نلخصه بالآتي:

أولاً: أنهم ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا دين لهم.

ثانياً: منزلتهم بين المجوس واليهود، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تُنكح نسائهم.

ثالثاً: أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون «لا إله إلا الله» ولم يؤمنوا برسول الله (هذا خلاف ما أضافه الرواة على حديث سلمان الفارسي مع النبي محمد، من أن قومه يؤمنون برسالته ونبوته).

رابعاً: يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة، ويصلون الخمس.

خامساً: فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور.

سادساً: قبيلة من نحو السواد (العراق) ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى([342]).

ما يخص الموصل، فلعل المقصودين كانوا الأيزيديين. فهم يقولون لا إله إلا الله، ولا يقرّون بنبوة محمد. وقبل أن يحل فيهم الشَّيخ عدي بن مسافر الذي أدخل إلى دينهم ما أدخل من عقائد جديدة. وما يخص قراءة الصابئة للزبور فهي ما زالت منتشرة بين العوام بالعراق، على الرغم من عدم صحتها. فهو كتاب من كتب اليهود، جاء ضمن العهد القديم من «الكتاب المقدس»، تحت اسم «سفر المزامير»، وهي مائة وخمسون مزموراً، أكثرها كان لداوود، لا شأن للصابئة المندائيين به.

يضاف إلى ذلك أن الزبور يعني الكتاب، وكتاب الصابئة زبور «الكَنزا ربا»، لا الزَّبور الذي غلب لفظه على مزامير داود، فعرفت بالزبور. ليس بين النقاط، التي أتى بها الطَّبري عن الإخباريين والمفسرين السابقين، ما يشير إلى المندائيين الحاليين غير الرأي القائل: «قبيلة من نحو السواد، ليسوا بالمجوس ولا اليهود ولا النصارى».

إن الجهل في تاريخ هذا الدين، بسبب سريته، جعل الطَّبري ينقل عن الصنعاني (ت211هـ) عن سفيان الثوري: «الصابئون قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين»([343]). ولا نعتقد أن في الشرق، منبع الأديان، قوماً لا دين لهم، أو يدينون بديانتين متباعدتين!

مَن يطلع على كتاب «الكَنزا ربا» وترجمات الكتب الأخرى، مثل «ديوان أباثر»، والرسوم الفلكية، والكائنات النورانية، قد يعذر الزمخشري (ت 538هـ) على الشطر الأخير من عبارته

التالية: «قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة»([344]). هذه أهم آراء المفسرين الأقدمين، ولنرى ما جاء به المحتسبون والقضاة الفقهاء.

إن غموض تسمية الصابئة وأحوالهم الدينية كان سببه، كما أسلفنا، باطنية أو سرية الطَّقوس والنصوص، فهم قوم اعتادوا على العيش تحت الاضطهاد بداية من اليهودية والمسيحية، بواسطة المبشرين الذين اعتبروهم نصارى منحرفين، ثم اضطهادات محتسبي المسلمين لهم، كصدور فتوى القتل بحقهم من قبل محتسب بغداد، والقاضي والفقيه الشافعي، أبي سعيد الحسن بن يزيد الأصطخري (ت328هـ) أيام القاهر بالله العباسي.

روى الخطيب البغدادي (ت463هـ) في سياق ترجمة الأصطخري: «أفتاه بقتلهم، لأنه تبيّن له أنهم يخالفون اليهود والنصارى، وأنهم يعبدون الكواكب، فعزم الخليفة على ذلك، حتى جمعوا بينهم مالاً كثيراً له قدر فكف عنهم»([345]). ذكرت مصادر إسلامية فتوى القتل في ترجمتها لحياة الأصطخري: «سير أعلام النبلاء» لشمس الدين الذهبي (ت748هـ). وعزف عن ذكرها آخرون مثل شمس الدين بن خِلّكان (ت681هـ) في «وفيات الأعيان».

كان صاحب فتوى القتل شافعياً، من أبرز فقهاء عصره، وقد عُرف بفقيه العراق، وتولى حسبة بغداد، فأحرق مكان الملاهي فيها. وبعد حوالي قرنين من الزمان جاء في رسالة رئيس ديوان الجوالي، محمد بن يحيى بن فضلان (ت631هـ)، الشافعي أيضاً، الخاصة بأهل الذمة إلى الناصر لدين الله العباسي (ت622هـ)، فقرة تذكر بفتوى الأصطخري في الصابئة والحثّ على تطبيقها:

«الصابئة قوم من عبدة الكواكب. يسكنون في البلاد الواسطية (بين الكوت والبصرة) لا ذمة لهم. وكان في قديم الزمان لهم ذمة. فاستفتى القاهر بالله أبا سعيد الأصطخري، من أصحاب الشافعي، في حقهم. فأفتاه بإراقة دمائهم، وأن لا تقبل منهم الجزية. فلما سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار، فأمسك عنهم. وهم اليوم لا جزية عليهم، ولا يؤخذ منهم شيء، وهم في حكم المسلمين والأمر أعلى»([346]).

والسؤال: كيف عبد الصابئة الكواكب، وكتابهم يقول: «باسم الحي العظيم، أشرق نور الحي، وتجلى منادهيي بأنواره، فأضاء جميع الأكوان، حطم ألوهية الكواكب، وأزال أسيادها من مواقعهم»([347]).

كيف عبد الصابئة المندائيون الأصنام والأوثان وكتابهم يقول: «من يقدم الضحايا والقرابين تعقد خطاه في جبل الظَّلام (جهنم) فلا يرى نور الله، أما من آمن واتقى فله من النُّور مرتقى حتى يبلغ بلد النور»([348]). وهم قبل أن تحرم على الأصطخري الخمور حرموها بالنص: «وليعلموا أن الخمرة يوضع شاربها في قيود وأقفال، وتثقل عليه السلاسل والأغلال»([349]).

كانت فتوى القتل المذكورة، في القرن الرابع الهجري، بعد أن أجاز الفقيه الحنفي وقاضي القضاة أبو يوسف، في القرن الثاني الهجري، التعامل مع الصابئة بأخذ الجزية منهم أسوة بـ «جميع أهل الشرك من المجوس وعبدة الأوثان وعبدة النيران والحجارة (من غير العرب)

والسامرة»([350]). وحكم الإمام أبو حنيفة فيهم: «إنهم ليسوا بعبدة أوثان، وإنما يعظمون النجوم كما نعظم الكعبة»([351]).

والغريب في الأمر، أن هذا التعامل مع الصابئة، وإن كان يحمي دماءهم، إلا أنه لا يتناسب مع حكم القرآن فيهم، أسوة باليهود والنصارى، في الآية 62 من سورة البقرة. والغرابة الأكثر، أن أبا يوسف كان عراقياً من أهل السواد، والصابئة المندائيون ليسوا بعيدين عن سمعه ونظره. ويشترط أبو علي الماوردي الشافعي (ت450هـ)، وهو بصري قريب من منازلهم، في أخذ الجزية منهم «إذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدهم، وإن خالفوه في فروعه»([352]). ومعلوم أن الأُصول هي أساس الدين أو المذهب، وما الفروع إلا وصايا لتطبيقها.

وخالف حكم الماوردي القرآن أيضاً، فالقرآن لم يشترط موافقتهم لدين آخر، مع علمنا أن موافقة الصابئة المندائيين للإسلام أكثر بكثير من موافقة أو مقاربة اليهود والنصارى له، ومَنْ يبحث في كتابهم ويقارنه مع نصوص القرآن، ويبحث في فقههم ويقارنه مع الفقه الإسلامي يجد الموافقة واضحة.

وكذلك خالفت فتوى الأصطخري، وخالف حكم الماوردي، وتحريض ابن فضلان ضدهم في رسالته إلى الناصر لدين الله العباسي (ت622هـ)، وكان الجميع شافعيين، إمامهم الأول محمد بن إدريس الشافعي (204هـ) حين أفتى: «الصابئون والسامرة مثلهم يؤخذ من جميعهم الجزية، ولا تؤخذ الجزية من أهل الأوثان، ولا ممن عبد ما استحسن من غير أهل الكتاب»([353]). ومعلوم مَنْ تؤخذ منه الجزية يحرم دمه، ولا يطلب منه مجاراة اليهود والنصارى بشيء إلا الإقرار بوجود الله.

يضاف إلى ذلك أن الماوردي من أهل البصرة كما أسلفنا، وهي إحدى مواطن الصابئة، وهنا يورد السؤال، ألم يكلف الفقهاء من أبي يوسف والأصطخري والماوردي، ثم ابن فضلان، أنفسهم وحاولوا استقصاء حقيقة هذا الدين من كاهن أو خبير من أهله، بدلاً من أن يعدّوا أتباعه من المشركين المجازين، أو يصدروا فيهم حكم القتل، أو تشترط عليهم موافقة اليهود والنصارى؟

إنه مجرد استفسار، يضع أمامنا أدوات الفقيه ومستوى علمه وحرصه، فالكل استخدموا أداة التاريخ المكتوب ورواية الحديث، وتركوا الواقع المعاش. ولم ينتهِ الأمر عند الفقهاء القدماء، بل تواتر هذا الأسلوب إلى المعاصرين من الفقهاء، على الرغم من كثرة الدراسات وتبدل أحوال المعرفة. إلا أنهم ظلوا يجهلون أمر الصابئة، وكأنهم خارج الكون، أو يتعاملون مع دين في مجاهل أفريقيا.

وإن أجاز الأصطخري والماوردي كفقيهين شافعيين أخذ الجزية من المجوس، لما ورد عن الرسول بشهادة الصحابي عبدالرحمن بن عوف أنه أخذها من أهل البحرين وكانوا مجوساً، فإن ابن قيم الجوزية (ت751هـ)، وهو حنبلي المذهب، قال: «الصابئة أحسن حالاً من المجوس، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بطريق الأَوْلى. فإن المجوس من أخبث الأمم ديناً ومذهباً، ولا يتمسكون بكتاب، ولا ينتمون إلى ملّة، ولا يثبت لهم كتاب ولا شبه كتاب»([354]).

هذا اعتراف ضمني من فقيه حنبلي كبير في مذهبه، وتلميذ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد، المعروف بابن تيمية (ت726هـ)، بكتاب أو شبه كتاب للصابئة.

الفقهاء المتأخرون

في الفقه المعاصر قال فيهم أبو الثناء شهاب الدِّين الآلوسي (ت1854): «هم موحِّدون يعتقدون تأثير النجوم»([355]). والآلوسي كما هو معروف يتوسط بين الفقه الشافعي، مذهبه الأصلي، والمذهب الحنفي مذهب الدولة العثمانية، وكان مفتياً لبغداد أيام الوالي نجيب باشا([356]). وقال محمد الحسيني الشيرازي (ت2001) بحذر وتردد: «فيهم غموض وخلاف، وربما قيل عبدة نجوم»([357]).

ويرى صاحب «تفسير الميزان» محمد حسين الطَّباطبائي (ت1981) «إن عقيدتهم مزيج من المجوسية واليهودية، مع أشياء من الحرانية. ولعل صاحب الميزان أول المحدثين، من فقهاء المسلمين، ميَّز بين الصابئة الحرانيين والصابئة المندائيين. ويؤكد أسباب نزول الآية 62 من سورة «البقرة» في ديانة سلمان الفارسي السابقة([358]). ولا يأتي الطَّباطبائي، رغم بحثه المطول، فيهم، بجديد على ما ورد في كتب الأقدمين.

ويعد محمد حسين فضل الله (ت 2010)، عن مؤرخين وكتاب مهتمين، أن الصابئة فرقتان: المنديا أو نصارى يوحنا المعمدان، وصابئة حران الوثنيون. ويذهب مستفيداً من بحوث أخرى، على الأرجح من بحث «الصابئة المندائيون» لليدي دراوور، إلى أن «الصابئة الذين ذكرهم القرآن إلى جانب اليهود والنصارى من أهل الكتاب يعدون من المنديا، ولا شك في أن اسم الصابئة

مشتق من الأصل العبري «ص ب أ» أي غطس، ثم سقط الغين، وهو يدل بلا ريب على المعمدانيين»([359]).

ولعل آية الله فضل الله ينفرد من بين علماء الدين والمفسرين بتحفظه على قبول نسخ الآيات التي ورد فيها اسم الصابئة بالآية: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ}([360]). قال: «نتحفظ على هذا الجواب. لأن مدلول هذه الآية لا يتنافى مع مدلول تلك، حتى نفرض نسخ الثانية للأولى. لأن الظَّاهر إرادة الإسلام بمعناه المصطلح، كما يلوح ذلك من صدرها، وهو الالتقاء على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»([361]). وهذا ما تقره الأديان المشار إليها في الآية.

ويقترب الشيخ محمد جواد مغنية من الصواب عندما قال في الصَّابئين: «قوم يقرون بالله وبالمعاد وببعض الأنبياء. ولكنهم يهتدون بتأثير النجوم في الخير والشر، والصحة والمرض، ومنهم طائفة في العراق الآن»([362]).

وعلى خلاف اشتقاق تسمية الصابئة من صبأ العبرانية، أي غطس وتوضأ، وجد مغنية أن التسمية مشتقة من«صبأت النجوم أي طلعت». ويعدهم بأقدم الأديان في التاريخ. وقد تقدم ابن قيم الجوزية باشتقاق تسمية المندائيين بالصابئة من صبأ النجوم.

فقال: «صبأت النجوم إذا طلعت وصبأ علينا فلان إذا طلع»([363]). ولا يستبعد أن مغنية اطلع على ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية، أو على سلسلة المقالات التي حبّرها الأب أنستاس الكرملي في مجلة «المشرق» في العام 1900 –1901. وذهب فيها إلى اشتقاق تسميتهم من الضوء.

بداية من صاحب أكبر موسوعة فقهية «جواهر الكلام» النجفي، من أعلام القرن التاسع عشر، وانتهاء بالسيَّد السيستاني، المرجع الشيعي الحالي بالنجف، لم نجد رأياً محرضاً ضد أهل هذا الدين، بل إن آية الله العظمى أبا القاسم الخوئي اعتبرهم من أهل الكتاب. وقدم مرشد الدولة الإيرانية آية الله علي خامنئي بحثاً مفصلاً فيهم عدّهم من أهل الكتاب ومن الأديان الموحدة.

كان أكثر اختلاط المندائيين بالمذهب الشيعي بجنوب العراق مقارنة بالأديان والمذاهب الأخرى. وكانوا سبباً في حياة المنطقة الاقتصادية، فهم لفترة طويلة ظلوا منتجي وسائل الإنتاج، من أدوات الصيد والزراعة والنقل. فلا بد أن يحدث احتكاك وتعالجه فتاوى الفقهاء.

قال آية الله أبو القاسم الخوئي (ت 1992) «الصابئي كان من أهل الكتاب كما هو الظَّاهر»([364]). جاء ذلك في شأن رجل صابئي أشهر إسلامه معتنقاً المذهب الجعفري، وطالبته زوجته الصابئية بالنفقة في محكمة من محاكم بغداد الشرعية.

وطرح آية الله علي الخامنئي جملة أمور بشأنهم، فلهم بإيران طائفة كبيرة، يبدو أنها كانت جزءاً من سكان العراق قبل قطع الأهواز عنها. لهذا نظر مرشد الدولة الإيرانية في أمرهم عن قرب، باحثاً في كتبهم المترجمة إلى الفارسية والعربية. وربما كان أول فقيه يبتعد عن النصوص الشرعية، ويطلع على كتبهم مباشرة، ويتابع ممارستهم الدينية عن كثب. قال: «نتيجة البحث في النقطة الأولى: إن الأقوى والأظهر بحسب الأدلة أن الصَّابئين يعَدّون من أهل الكتاب»([365]).

ولأنه نظر في واقع هذا الدين، لا في ما كُتب وقيل، نفى خامنئي أن يكون الصَّابئة ديانة متفرعة من الأديان الأخرى، بل نظر إليها كديانة مستقلة. قال: «هل الصَّابئة يعُدّون من شعب بعض الأديان الثلاثة: اليهود والنصارى والمجوس، أو إنهم نحلة أخرى غير هؤلاء؟ والجواب على ذلك: قد علم من بعض ما ذكرنا في توضيح النقطة الأولى، فلا دليل على ما قيل، وقد مضى ما نقلناه من كلمات بعض الفقهاء، من أنهم شعبة من اليهود، أو أنهم مجوسيون، وأمثال ذلك مما نقله في الجواهر عن غير واحد من الفقهاء كالشافعي، وابن حنبل، والسدي، ومالك وغيرهم، بل لعل مقتضى ما ذكرنا الجزم بخلافه»([366]).

ولعل الخامنئي في كلمته التالية قدم نقداً غير مباشر للفقهاء الذين لم ينظروا في أمر هذا الدين، وهو حيٌّ بينهم. قال: «والحق الذي ينبغي الاعتراف به هو أننا لا نعرف من المعارف والأحكام الدينية لهذه النحلة التاريخية، والتي أصبح المنتمون إليها موجودين بين أيدينا وفي عقر بلادنا، شيئاً كثيراً تسكن النفس بملاحظته إلى معرفة أصحابها، والباحث في هذا الموضوع يجد في حقل البحث الموضوعي فيه فراغاً كبيراً لم يُسدّ مع الأسف»([367]).

وبعد اطلاعه على ما نشر من «درفش» (كلمة فارسية تعني العَلَم وإحدى صحف الصَّابئة، قابلت فيما بعد محررها المندائي الحلالي سالم جحيلي من صابئة الأهواز)، قال الخامنئي: «فمن جملة عقائدهم التي يدّعونها ويصرون عليها التوحيد»([368]). ويستشهد خامنئي بالنص المندائي التالي من بوثة التوحيد: «إلهي منك كل شيء. يا عظيم يا سبحان. يا حكيم يا عظيم. يا الله المتعال الكريم، علا قدرتك على كل شيء. يا من ليس له شبيه، ولا

نظير. يا راحم المؤمنين. يا منجي المؤمنين. يا عزيز يا حكيم. يا من ليس له شريك في قدرته، أسبّح باسمك»([369]).

إن ما أكده مرشد الدولة الإيرانية في حكم الصَّابئة المندائيين هو «أن في عقائدهم جملة من العقائد التوحيدية الحقة المقبولة، وزمرة من الأباطيل المنافية للعقيدة التوحيدية الخالصة»([370]).

ويعني بالأباطيل المنافية للتوحيد الخالص هو «اعتقادهم بما يسمى منداهيي الذي يقولون عنه بأنه أول مَنْ سبّح الله تعالى وحمَدَه، وأنه أحد الملائكة المقربين، ويقرنون اسمه في بعض البوثات (الآيات) باسم الربّ تعالى، ومن ذلك ما يرى التوسل بالملائكة الذين يسمّونهم بأسماء عندهم ويعتبرونهم من المقربين، ويذكرون اسم آدم أبي البشر ويحيى عليه السلام في عداد الملائكة، ويسلمون على الأنهار المقدسة والأماكن المقدسة، وعلى الحياة وسكان عالم الأنوار وغير ذلك»([371]).

كلُّ ما أفصح به آية الله علي الخامنئي في أمر الصَّابئة كان صحيحاً. لكنه ربما لم يسمع منهم تأويل علاقتهم بالماء الحي، وتعريفهم لعالم النور. وأي دين يخلو مما لدى الصَّابئة من العلاقة بالماء والضِّياء؟

فهم إذ يجعلون للماء منزلة في طقوسهم، كوسيلة للعبادة، لا يسلمون على الأنهار، وإنما يذكرون الحي القديم وهم وسط النهر. وقد لا ينفصل اهتمام آية الله خامنئي بالصَّابئة المندائيين عن مهامه كمرشد لدولة يقطنها المسلم والمسيحي واليهودي والمندائي والزرادشتي والبهائي، وهو بذلك تفوق على سلفه آية الخميني في معاملة أهل الكتاب والأديان الأخرى. فالزرادشتيون بإيران يظهرون في المجالس الرسمية بثيابهم البيضاء الناصعة، مع أنهم على دين منسوخ بالإسلام.

لكن من جانب آخر، وعلى الرغم من الاعتراف بالصَّابئة كأهل كتاب وموحدين من قِبل أعلى سلطة، نجد دستور الدولة الإيرانية لا يعترف بهم ضمن الأديان الأخرى المعترَف بها.

جاء في المادة الثالثة عشرة من الدستور: «الإيرانيون الزرادشت، واليهود، والنصارى، والمسيحيون وحدهم الأقليات المعترف بها، وتتمتع بالحرية في أداء مراسمها الدينية ضمن نطاق القانون. ولها أن تعمل وفق قواعدها في الأحوال الشخصية والتعاليم الدينية»([372]).

كان هذا التجاهل والجهل قديماً بأمر الصَّابئة، والسكوت عما شاع بنجاستهم بين العامة في جنوب العراق ما زال سائداً. وبسبب ذلك عانى المندائيون ما عانوا، رغم ذكرهم في القرآن، والصداقة الروحية، التي كان يُضرب فيها المثل، بين جامع «نهج البلاغة» نقيب الطَّالبيين

وتلميذ الشيخ المفيد، الشريف محمد حسين الرضي (ت406هـ) وبين الصابئي أبي إسحاق إبراهيم بن هلال (ت384هـ)، فأخبار هذه الصداقة ملأت صفحات التاريخ وأخبار الأدب. واستغرقت رسائلهما الوجدانية كتاباً كاملاً صدر بعنوان «رسائل الصابئ والشريف الرضي».

كانت أشهر قصائد الشريف الرضي ما قاله في رثاء إبراهيم الصابئ، التي استغرقت ثمانين بيتاً، ومطلعها المشهور:

أعلمت منْ حملوا على الأعوادِ
أرأيت كيف خبا ضياء النادي([373])

ومن أبياتها ذات الوجد العميق:

ما مات مَنْ جعل الزمان لسانه
يتلو مناقبَ عُوداً وبوادي

فاذهب كما ذهب الرَّبيع وإثـره

باقٍ بكل خمائلٍ ونجادِ

وكتب الرضي معاتباً إلى بعض أصدقائه، عقب وفاة أبي إسحاق، يصف له ما لحقه من وجد وقلق لقده: «بلاغي بما لا أقوم له من أليم قطيعته، والأُولى صفته معي في الصديق الصادق، والحميم الموافق أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ، فإنه كما لم يغيّر لي ودَّه في حياته، رماني بالخطب الجليل من وفاته، وأنتزعه من يدي على حين انضمامها على إخائه»([374]).

كان إبراهيم بن هلال كاتباً ثقة عند البويهيين الشيعة، وصنف كتاباً في تاريخهم تحت عنوان «التاجي». وقد طلبوا منه أن يعلن إسلامه، كي يتولى منصب الوزراة لفضله ومنزلته، لكنه امتنع([375]).

وإذ كانت عاطفة الشريف الرضي تجاه صديقة الأثير، إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابئ، ندية كما جسدها في قصيدته المذكورة، كان أخوه الشريف المرتضى من خشونة الجانب أن ردّ على «أعلمت مَنْ حملوا على الأعواد» بالقول: «نعم علمنا أنهم حملوا على الأعواد كلباً كافراً صابئاً عُجّلَ به إلى نار جهنم»([376]). وعلى هذا تُقاس الهوة الروحية بين الأخوين الشريفين.

وكتب ابن أبي أصيبعة في ترجمة ثابت بن قرة الحراني: «هو أصل ما تجدد للصابئة من الرئاسة في مدينة السلام»، وكان

طبيباً من خاصة المعتضد، يمشي معه في الفردوس، وهو بستان في داخل دار الخلاقة للرياضة([377]).

قال ثابت بن سنان الصابئ في والده شيخ أطباء بغداد: «إنه لما كان في أول يوم من المحرم، سنة ست وثلاثمئة، فتح والدي سنان بن ثابت بيمارستان السيدة «شغب أم المقتدر»، الذي اتخذه لها بسوق يحيى، وجلس فيه ورتّب المتطببين، وقبل المرضى، وهو كان بناه على دجلة. وكانت النفقة عليه في شهر ستمائة دينار.

قال: وفي هذه السنة أيضاً أشار والدي على المقتدر بالله بأن يتخذ بيمارستاناً ينسب إليه، فأمره باتخاذه، فاتخذه في باب الشام، وسماه البيمارستان المقتدري، وانفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار. ولما كان في سنة تسع عشرة وثلاثمائة اتصل المقتدر أن غلطاً جرى على رجل من العامة، من بعض المتطبِّبين، فمات الرجل، فأمر إبراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سائر المتطبِّبين من التصرف إلا مَنْ امتحنه والدي، سنان بن ثابت، وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة، فصاروا إلى والدي وامتحنهم، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه، وبلغ عددهم جانبي بغداد ثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلاً، سوى مَنْ استغنى عن مهنته باشتهاره بالتقدم في صناعته، وسوى كان في خدمة السلطان»([378]).

لم يكن سنان بن ثابت طبيباً فقط، بل لرجاحة عقله وسدادة رأيه أن بعث له أمير واسط، بعد وفاة الراضي بالله، لتدبير بدنه وسلوكه. قال له: «أريد أن أعتمد عليك في تدبير بدني وتفقده، والنظر في مصالحه. وفي أمر آخر هو أهمُّ إليّ من أمر بدني، وهو أمر أخلاقي، لثقتي بعقلك وفضلك ودينك ومحبتك، فقد غمّني غلبة الغضب، والغيظ عليَّ، وإفراطهما بي، حتى أخرج إلى ما أندم عليه عند سكونهما من ضرب وقتل»([379]).

فأين مَنْ أفتى من فقهاء هذا العصر بنجاسة الصَّابئة المندائيين وكفرهم من عاطفة الشريف الرضي، ووجدانه تجاه مَنْ ظل محتفظاً بدينه الصابئي. وأين هو من ثقة الخلفاء والأمراء بالطَّبيب الصابئ. هذا، وليس لدي معطيات تسمح ببحث العلاقة بين الرجلين، الرضي والصابئ، خارج إطارها الصداقي الإنساني إلى إطار فكري، فهناك إشارات وتلميحات في شعر الرضي قد تفيد في وجود منحى عرفاني (أغنوصي) لديه، والصَّابئة بالأساس هم عرفانيون.

غير أن ذكرى العلاقة بين الشريف الرضي والشيخ الصابئي ظلت حية حتى عصرنا الحالي. أخبرني السيد محمد بحر العلوم عن آصرة الصداقة بين والده السيد علي بحر العلوم والشيخ الصابئي أبي بشير عنيسي بالعمارة، فكان علي بحر العلوم يذهب إلى هناك لوجود أراضٍ موقفة له، وكانت تربطه بعنيسي صداقة وطيدة، فبعض الأصدقاء سأله: كيف تكون لك صداقةً وطيدة بشيخ صابئي؟ فردّ عليه:

بيني وبين أبي بشير صداقة
تبقى مدى الأيـام الأحقابِ
أني لأرجو الودَّ يبقى بيننا
كودادِ سيدنا الرضي والصابي

بعد بيان آراء الفقهاء والعلماء المسلمين في أمر الصَّابئة المندائيين، أودّ المرور على رسالة استلمتها عبر البريد موقعة باسم الشيخ ميثم العقيلي، عن المؤسسة الإعلامية للسيد الشهيد الصدر بالبصرة، بعد التاسع من أبريل/نيسان 2003، جاء فيها أن الصَّابئة يمارسون أعمال الدجل والشعوذة والزنا والتفريق بين المرء وأهله. أقول: قبل اتهام ديانة كاملة بمثل هذه الممارسات علينا التذكر جيداً ما يُتهم فيه الخصوم المذاهب الإسلامية الأخرى، وأخص بالذكر مذهبنا الشيعي.

فمَنْ ينسى تشويهات جريدة «الثورة» –نسبت في حينها إلى سكرتير صدام حسين الصحافي عبدالجبار محسن، إلا أنه نفاها في لقاء تلفزيوني معه عبر قناة الشرقية– ربيع 1991 ضد الشيعة

في جنوب العراق، وأهل الأهوار عامة. كان المقال تحت عنوان «التعصب الشيعي، فساد أخلاق أهل الأهوار». وجاء في المتن: «من المعروف أن الكثير من الذين أُعدموا بقرارات من محمكة الثورة جراء الزنا بالمحارم هم من بين هذا الصنف من الناس»([380]).

ومَنْ ينسى ما نشرته جريدة عدي صدام حسين «بابل» من تشويهات وافتراءات ضد الشيعة؟ لقد وردت في صفحة حوارات موضوع يبرئ هند بنت عتبة وزوجة أبي سفيان من دم الحمزة عم النبي. وموضوع آخر يشوّه عقيدة الشيعة في المهدي المنتظر، وفي طقوس عاشوراء([381]).

وكان آخر المغالطات ضد الشيعة ما جاء على لسان جريدة عربية صادرة بلندن، وهي من بقية تمويل النظام السَّابق، حاولت تحسين صورة صدام حسين وعهده المظلم بأنه رفع راية الإسلام عالياً، وبنى المساجد، وقضى على الدعارة، وأماكن الفسق.

كتبت صحيفة «العرب» بالحرف الواحد: «اشتهرت العراق بتعدد أماكن اللهو فيها منذ الستينيات، وخاصة في المدن الجنوبية بحكم انفتاح الشيعة فيها، وقد حصل في مجلس صدام حسين حديث عما يحصل في هذه الأماكن من جرائم خُلُقية حتى أصبحت مرتعاً للفساد والإفساد»([382]).

فهل علم كاتب المقال ببواطن إفساد نظام صدام حسين وبواطن المذهب الشيعي، ومعاملاته؟! فلماذا يقع صاحب الرسالة أو الفتوى في التوهّم نفسه؟ ويرى في المندائيين جماعة مفسدة دون أن يقرأ كتابهم وتشدّدَهم ضد الشعوذة والزنا، ووداعتهم ومعاشرتهم الطَّيبة لأبناء المذهب الشيعي، ومواطنيهم من العراقيين عامة. ولو حصل أن مندائياً واحداً أو مجموعة أفسدت، فهل يعني هذا أن الدين المندائي راضٍ بما يفعلون؟ وهل أن أتباع الأديان والمذاهب الأخرى كافة يلتزمون تعاليم أديانهم ومذاهبهم؟

ولكشف الحقيقة نأتي بتعاليم المندائيين ضد الشعوذة والزنا، وكل ما يضر المجتمع ويُغضب الله. ورد في الكتاب المندائي المقدس «الكَنز ربا» ما يفيد النهي عن الشَّعوذة والتَّنجيم: «لا تستشيروا العرافين والمنجمين والساحرين والكاذبين، في أموركم، مخافة أن يرمي بكم أسوة بهؤلاء إلى الظُّلمات»([383]). وتعني الظُّلمات جهنم أو الجحيم. وجاء في النهي عن الربا: «لا تغالوا بفرض الفائدة والربا الفاحش خشية أن يقع عليكم الحكم بالنفي إلى الظُّلمات الدامسة»([384]).

وفي النهي عن الزنا وإشاعته: «لا تعشقوا نساء الآخرين. ولا تقترفوا الزنا. لا تغنّوا غناء السكير. ولا ترقصوا رقص الغجر. احذروا أن يستحوذ على قلوبكم الشيطان، المملوء بأحابيل السحر والخذاع والغواية. ذلك أنه يستطيع أن يقلب نوايا الصالحين المحمودة إلى عكسها، ويجعل قلوب المؤمنين تتعثر وتتحول»([385]).

هناك تعاليم أُخر تحرص على مساعدة الفقير وابن السبيل، وأعطاء حق الأجير والالتزام بوحدانية الله. ومنها «لا تسبّحوا للشمس والقمر اللذين ينيران العالم». «لا تعبدوا الشمس التي اسمها شامش». وبالنص الآتي يؤكد الدين المندائي على حب الخير والعمل به: «لا تفعلوا شيئاً ضد الغير ما ليس تحبونه لأنفسكم». هذا شيء يسير من تعاليم المندائية ونقائها الروحي.

الفصل الثاني: روايات المؤرخين

للصابئة المندائيين حضور مكثف في الرواية الإسلامية. ذكرهم أبو فرج النديم (ت377هـ)، وأبو الحسن المسعودي (ت346هـ) وأبو الريحان البيروني (ت440هـ)، بما هم عليه الآن. وذكر آخرون علاقتهم بأنبياء وشخصيات قديمة، لا يخلو منها كتابهم «الكَنزا ربا». وأقدم من هذا، قال الطَّبري مفسراً معنى الصحف الأولى: هي التي «نزلت على ابن آدم هبة الله، وإدريس عليهما السلام»([386]). وقصة معراج دنانوخت (إدريس)، والكتب التي نزلت عليه، ومعراجه إلى السماء السابعة، واضحة في نصوص «الكَنزا ربا».

قال الطَّبري: كان «مُلك بيوراسب في عهد إدريس، وقد وقع إليه كلام من كلام آدم، صلوات الله عليه، فاتخذه في ذلك الزمان سحراً، وكان بيوراسب يعمل به، وكان إذا أراد شيئاً من جميع مملكته، أو أعجبته داية أو امرأة نفخ بقبضة له من الذهب»([387]).

وبيوراسب «دعا إلى ملة الصَّابئين... وتبعه على ذلك الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام»([388]).

ويعدُّ صابئتُنا الحاليون كتابَهم كتاب آدم، ويعدون إدريس ونوحاً من عظمائهم. ويذكر المسعودي –غير الرواية الخاصة بالمندائيين الحاليين– أن الصَّابئة «تزعم أخنوخ بن يرد هرمس، ومعنى هرمس عطارد، وهو الذي أخبر الله في كتابه أنه رفعه مكاناً علياً، وكانت حياته في الأرض ثلاثمائة سنة، وهو أول مَنْ درز الدروز، وخاط بالإبرة، وأُنزلت قبل ذلك على آدم إحدى وعشرون صحيفة، وأُنزلت على شيت تسع وعشرون صحيفة، فيها تهليل وتسبيح»([389]).

تقترب رواية المسعودي إلى حد كبير من قصة «الكَنزا ربا»، فأخنوخ بن يرد هو دنانوخت نفسه، وهو هرمس. وهرمس هو إدريس، وهو الذي عرج إلى السماء السابعة، المكان العلي، ونزلت عليه الصحف، التي كان يحتفظ بها في غرفة مغلقة. ثم نزلت عليه ثمانية كتب أخرى، لم يصح منها غير الكتاب الثامن.

ورد معراج إدريس (دنانوخت) في «الكَنزا ربا» والقرآن الكريم، وقصته واحدة من المتوافقات بين الكتابين. ورد في الآية: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}([390]). وفي صلة إدريس بالصَّابئة ما ينفي عنهم عبادة النجوم أو الأصنام. قال السيوطي: «إن النبي إدريس (ع، م) دعا الخلق إلى الله تعالى فأجابوه، وكانت عقيدته الصَّابئة، وهي توحيد الله تعالى والطَّهارة والصَّوم وغير ذلك من رسوم التعبدات»([391]).

ويربط المسعودي بين الصَّابئة القدماء الحرانيين وبين المندائيين الحاليين، مشخصاً مؤسسهم الأول في الديار الهندية. قال: «رجل يقال له بوداسف أحدث مذهب الصَّابئة. وقال: إن معالي الشرف الكامل والصلاح الشامل، ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع. وإن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات، وهي التي برزوها من أفلاكها وقطعها مسافاتها، واتصالها بنقطة، وانفصالها

عن نقطة سبب ما يكون في العالم، من آثار من امتداد الأعمار وقصرها، وتركيب البسائط، وانبساط المركبات، وتتميم الصور، وظهور المياه وفيضها، وفي النجوم السيارة، وفي أفلاكها التدبير الأعظم وغير ذلك... فاجتذب جماعة من ذوي الضعف في الآراء، فيقال إن هذا الرجل أول مَنْ أظهر مذهب الصَّابئة من الحرانيين، والكيماريين، وهذا النوع من الصَّابئة مباينون للحرانيين في نحلتهم وديارهم بين واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام»([392]).

وربما قصد المسعودي في حديثه حول كهنة الصَّابئة «أعلى كهنتهم يسمى رأس كمري» رئيس أمة أو ريش إمة، حسب اللفظ المندائي، وهو أعلى درجة دينية بين المندائيين الحاليين. والمسعودي قد ينفرد في تسمية الصَّابئة المندائيين بالكيماريين، فلم نعثر على هذه التسمية عند الآخرين.

إلا أن المفردة وردت في «القلستا»، وهو كتاب ترانيم الزواج المندائية. ورد في النص: «ألكا كَمرا، أنت الجوهرة المختارة، التي تخلو من العيوب»([393]). وتعني أحد الأثيريين، أو ملاك، ورأس كمري يعني رئيس الأثيريين.

إلى جانب ذلك نأتي بمعانٍ أخرى لتسمية: تصحيف لكلمة كماريم التي وردت في «قاموس الكتاب المقدس»([394])، وتعني «كهنة الآلهة الكاذبة» و«كهنة الأصنام» أو «كهنة عجول بيت أوان». والجملة الأخيرة، حسب «نبوءة صفينا» من العهد القديم تعني السامرة، وهم فرقة يهودية تخالف اليهود في أمور عديدة، وتعني الجملتان الأخيرتان الصَّابئة. ففي العرف اليهودي أنهم عبدة أصنام. ومن جانب آخر قد تتعلق تسمية الكيماريين بالختان أو الطَّهور، وبالتالي مأخوذة من كلمة كَمرَة وتعني رأس الذكر، و«المكمور مَنْ أصاب الخاتن كمرته»([395]).

وإن صح ذلك، فالتسمية من أسماء الأضداد، مثلما يسمى القبيح بالجميل، والمعروف عن الصَّابئة أنهم يحرّمون الختان لأسباب تتعلق بتقديس ما خلقه الله، أو تتعلق التسمية بالستر والإخفاء، والمندائيين لا يشهرون طقوسهم، فهم ديانة أقرب إلى السرية.

ومن معاني الكمر الأخرى الغطاء والستر، أو أن لها صلة بالشعر، والصَّابئة يشددون على عدم حلاقته، فمن معاني الكمر منطقة من الشعر وهي فارسية. ويبقى احتمال سماع المسعودي المفردة من شيخ مندائي هو الأقرب إلى تسميتهم بالكيماريين، قصها عليه كما قص الشيوخ المعاصرون أسرارهم وطلاسمهم لليدي دراوور، ولم تحفل بها إلا بعد صحبة عشرين عاماً.

سمى أبو فرج النديم (ت 438هـ) المندائية بالمغتسلة، وهو أقرب الأسماء إليهم. قال: «وهو هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح (الأهوار)، وهم صابئة البطائح. يقولون بالاغتسال، ويغسلون جميع ما يأكلونه»([396]). وقال حول عقائدهم: إنهم «على مذاهب النبط القديم، يعظمون النجوم، ولهم أمثلة وأصنام، وهم عامة الصابة المعروفين بالحرانيين، وقيل إنهم غيرهم جملة وتفصيلاً»([397]).

تراجع النديم، في العبارة الأخيرة، عن الخلط بين الحرانيين والصَّابئة المندائيين، على الرغم من أنه نقل قصة، عن أبي يوسف أيشع القطيعي النصراني، أشارت إلى حادثة غريبة تؤرخ إلى سبب

اتخاذ الحرانيين اسم الصَّابئة، بعد أن خيّرهم الخليفة عبدالله المأمون بين الإسلام أو الالتحاق بدين من الأديان الكتابية، واختاروا الصابئية لوردوها في القرآن بناءً على نصحية أحد العارفين([398]).

وأكثر الظَّن، أن النديم في تسمية ملّة من الملل بالرشيين كان يعني دون قصد المندائيين. وربما سجل ذلك نقلاً من أفواه الآخرين. يظهر ذلك من اهتمام هؤلاء بالماء الحي والظَّلام.

فقد جاء في مقالة الرشيين، وللاسم متعلق مباشر برش الماء: «لم يكن غير الظَّلمة فقط، وكان في جوفها الماء، الريح، وفي الريح الرحم، وفي الرحم المشيمة، وفي المشيمة البيضة، وفي البيضة الماء الحي، وفي الماء الحي ابن الأحياء العظيم، وارتفع إلى العلو، فخلق البريات والأشياء والسموات والآلهة»([399]).

وأشار إليهم، لا عن قصد أيضاً، بالكشطيين. ومعروف أن مفردة كشطا هي مفردة مندائية، وتعني العهد أو الحق، وتتكرر كثيراً في كتاب «الكَنزا ربا»، وتأتي مركبة: مشوني كشطا، «أي الحق المتسامي، وهو عالم مثالي وموطن الآدميين السماويين، وفيه أشباه المخلوقات والأدوات الأرضية، ويكون موقعه في الشمال من الكون، حيث يقع عالم النور»([400]).

جاء في مقالة الكشطيين: «إنه قبل كل شيء الحي العظيم، فخلق من نفسه ابناً وسماه نجم الضِّياء، ويسمونه الحي الثاني (لعله مندادهيي) ويقولون بالقربان والهدايا والأشياء الحسنة»([401]).

قد ينفرد النديم في ذكر المندائيين بالتسميات الدالة عليهم، مع الاختلاف في المقالات والعقائد. وينفرد أيضاً في ذكر علاقتهم بالمانوية، وهي ديانة وفلسفة في آن واحد، ظهرت بالعراق في القرن الثالث الميلادي، ومن أهدافها إقامة كنيسة بابل، وأن الوحي والاجتماع المانوي الرسمي لا يتم إلا ببابل. وتقدم هذه العلاقة برهاناً ساطعاً على قدم المندائية بجنوب العراق، حيث جداول المياه العذبة بالأهوار.

بدأت المانوية بصوت سمعه فاتق والد ماني، ناداه من الهيكل قائلاً: «لا تأكل لحماً، ولا تشرب خمراً، ولا تنكح بشراً. تكرر ذلك عليه دفعات في ثلاثة أيام. فلما رأى فاتق ذلك لحق بقوم كانوا بنواحي دستميسان معروفين بالمغتسلة، وبتيك النواحي والبطائح بقاياهم إلى وقتنا هذا (القرن الرابع الهجري). وكانوا على المذهب الذي أمر فاتق الدخول فيه. وكانت امرأته حاملاً بماني، فلما ولدته زعموا كانت ترى له المنامات الحسنة، وكانت ترى في اليقظة كأن أحداً يأخذه، فيصعد به إلى الجو ثم يرده»([402]).

وأخيراً، لا ندري إن كان اسم ماني مشتقاً من المانا المندائية، التي تفيد عدة معانٍ، كل واحدة منها مناسبة لصفات الأنبياء، وهي: العقل، الوعاء، النفس. وقد تأتي بمعنى ملاكٍ ذي مرتبة سامية([403]).

روى أبو الريحان البيروني عن آخر: «إن هؤلاء الحرانية ليسوا الصَّابئة بالحقيقة، بل هم المسمَّون في الكتب بالحنفاء والوثنية. فإن الصَّابئة هم الذين تخلفوا ببابل من جملة الأسباط الناهضة في أيام كورش، وأيام أرطحشست إلى بيت المقدس، ومالوا إلى شرائع المجوس، فصبوا

إلى دين بختنصر، فذهبوا مذهباً ممتزجاً من المجوسية واليهودية كالسامرة بالشام. وقد يوجد أكثرهم بواسط وسواد العراق بناحية جعفر والجامدة ونهري الصلة، منتمين إلى أنوش بن شيت، ومخالفين للحرانية عائبين مذاهبهم، لا يوافقونهم إلا في أشياء قليلة، حتى أنهم يتوجهون في الصلاة إلى جهة القطب الشمالي والحرانية إلى الجنوبية»([404]).

ولرواية البيروني صلة بمندائيي اليوم، وهم كما قال عنهم تماماً. ورد في كتاب «كَنزا ربا» فصل تحت عنوان «تساؤلات آنوش»، جاء في بدايته: «باسم الحي العظيم... جالس في بلد الضِّياء، متطلع إلى الأرض والسماء، أنا أنوش الأمين بن شتيل (شيت) الأمين بن آدم الأمين ابن الملائكة ذوي الوقار، ابن بلد المعرفة والتَّسبيح والأنوار»([405]).

غير أن البيروني، الذي نقل هذه المعلومة الهامة، اعتذر في كتاب آخر عن ذكر المندائيين. قال: «الصابئون في كتاب الله تعالى مقترنون بالذكر بالطَّوائف الذين قدّمنا ذكرهم. فأما الكائنون بسواد العراق، حوالي قرى واسط، فما حصلت من أسبابها على شيء البتة»([406]).

رد أبو الريحان على روايات اتهمت الصَّابئة بأمور منافية لوداعتهم وإيمانهم العميق، مثل القول بذبحهم أولادهم وتقديمهم قرابين للكواكب. قال: «نحن لا نعلم منهم إلا أنهم أُناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح، ويصفونه بالسلب لا الإيجاب، كقولهم لا يُحدُّ ولا يُرى ولا يُظلم ولا يجور، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً»([407]).

ومن غير المؤرخين جاء ذكر الصَّابئة المندائيين عند ابن بحر الجاحظ (ت255هـ)، وسنذكر حكايته، لا لأهميتها التاريخية، بل لمخالفتها الواقع، ونميل إلى أنه كان يقصد المندائيين بالذات، فهو من البصرة حيث ديارهم في جنوب العراق. وكان ابن بحر أديباً، صاحب نثر فني، يدخل ما يعرض من أخبار وطرائف بلا تمحيص، وربما خلق الرواية خلقاً.

كتب تحت عنوان «خصاء الصَّابئة»: «وأما الصابئون، فإن العابد منهم ربما خصى نفسه، فهم في هذا الموضع قد تقدم الروميّ، فيما اضطر من حسن النية، وانتحل من الديانة والعبادة بخصاء الولد التام، وبإدخاله النقص على النسل، كما فعل ذلك أبو المبارك الصابي. وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه ويسمعون منه، ويسمر عندهم... وقد خصى نفسه من الصَّابئين رجال، قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأحاديثهم»([408]).

إن كلام الجاحظ مردود من ألفه إلى يائه، إذا كان الأمر يتعلق بالصَّابئة المندائيين الذين نعرفهم، والسبب أن عقيدتهم حرّمت الجنة على العازف عن الزواج، فلا رهبنة عندهم في هذا المجال، ولا يولون عاقراً منصباً دينياً. والبوثة (الآية) التالية من كتابهم المقدس كفيلة بهذا الرد: «أيها العزاب أيتها العذارى، أيها الرجال العازفون عن النِّساء، أيتها النِّساء العازفات عن الرجل، هل وقفتم على ساحل البحر يوماً؟ هل نظرتم إلى السمك كيف يسبح أزواجاً؟ هل صعدتم إلى ضفة الفرات العظيم، هل تأملتم الأشجار واقفة تشرب الماء على ضفافه وتثمر؟ فما بالكم لا تثمرون»؟!

وجاء في البوثة الآتية: «الرِّجال الزَّاهدون في النِّساء، والنِّساء الزاهدات في الرجال كذلك يموتون، ومصيرهم الظَّلام حين من أجسادهم يخرجون»، وكذلك ورد في البوثة: «أثمروا إن أردتم أن تصعدوا حيث النور»([409]). فهل تكفي الجاحظ بوثات أو آيات «الكَنزا ربا» الكثيرة في تقديس الصَّابئة للخصب؟

أورد أبو فرج النَّديم (ت 438 هـ) أموراً هامة أُخر، لها صلة بكتاب الصَّابئة المقدس. ذلك الكتاب الذي رفعه رئيس كهنتهم، المدعو دنقا، يوم دخل العرب المسلمون العراق([410])، ليبيّن لهم أن قومه من أهل الكتاب.

قال النديم عن أحمد بن عبدالله بن سلام مولى هارون الرشيد: «ترجمت هذا الكتاب من كتاب الحنفاء، وهم الصَّابيون الإبراهيمية، الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام، وحملوا عنه الصحف، التي أنزلها الله عليه، وهو كتاب فيه. إلا أني اختصرت منه ما لا بد منه، ليعرف به سبب ما ذكرت منه اختلافهم وتفرقهم، وأدخلت فيه ما يحتاج إليه من الحجة في ذلك من القرآن والآثار، التي جاءت عن الرسول (ص) وعن أصحابه، وعن مَنْ أسلم من أهل الكتاب»([411]).

وقال المترجم أحمد بن سلام أيضاً: «ترجمت هذا الكتاب والصحف والتوراة والإنجيل، وكتب الأنبياء والتلامذة، من لغة العبرانية والصابية، وهي لغة أهل الكتاب إلى اللغة العربية، حرفاً حرفاً، ولم أتبع في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه مخافة التحريف، ولم أزد على ما أوجدته في الكتاب الذي نقلته، ولم أُنقص إلا أن يكون في بعض ذلك من الكلام ما هو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب»([412]).

وعد مولى هارون الرشيد الكتب السماوية، وما ادعتها الصابئية منها، منذ ذلك الزمان بالتالي: «جميع ما أنزل الله تعالى من الكتب مائة كتاب وأربعة كتب. من ذلك مائة صحيفة أنزل الله تعالى فيما بين آدم وموسى.

فأول كتاب أنزله الله جل اسمه على شيت عليه السلام، وهو إحدى وعشرون صحيفة. والكتاب الثالث أنزله الله على أخنوخ (مصحف من الاسم المندائي دنانوخت)، وهو إدريس عليه السلام، وهو ثلاثون صحيفة. والكتاب الرابع أنزله، جل اسمه، على إبراهيم عليه السلام، وهو عشر صحائف»([413]).

أبدى أكثر من باحث، في شأن المندائيين، صعوبة البحث في كتبهم الدينية، بسبب تاريخها المجهول وموضوعاتها الشائكة. فـ«الكَنزا ربا» كتاب أُنزل بواسطة هيبل زيوا (جبرائيل) على آدم وشيت وإدريس ونوح، مجموعة من الصحف نزلت بفترات مختلفة. إلا أن أسماء وأحداث عديدة دخلت في الكتاب، تصل إلى زمن يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم. ومع أن الصَّابئين يعتقدون أن كتاباً من كتبهم نزل على يحيى بشهادة القرآن: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً} ([414])، غير أن المفسرين المسلمين أشاروا إلى أنه كتاب «التوراة» لا الكتاب المندائي.

تدفعنا رواية النديم عن مولى هارون الرشيد إلى التشكيك في ما ذهب إليه الأب أنستاس ماري الكرملي إلى أن تاريخ كتابة «الكَنزا ربا» كان بداية القرن الثامن الميلادي، وبالتحديد السنة

708 الميلادية، وحسب قوله، توصل إلى ذلك بعد قراءة حوادث الكتاب.

وغير ما جاء في «الفهرست»، عن مولى الرشيد، ذكر ابن أبي أصيبعة أن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابئ، مصنف كتاب «شرح مذهب الصابئي»، ترجم كتاباً إلى العربية بعنوان «السور والصلوات التي يصلي بها الصابئون»([415]). ولا يستبعد أن يكون ما ترجمه الصابئي هو أحد كتبهم الحالية.

أثرهم في المحيط

هناك تأثيرات مندائية، تعد من ثوابت الدين، قد دخلت بعض الحركات الإسلامية ومنها تحريم الختان. فقد حرم بعض رؤساء الفرق السرية الإسلامية الختان للسبب نفسه، وهو عدم إنقاص ما خلق الله في الجسد. فقد شاع عن عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب أنه شرع لأصحابه، وهم جماعة من جماعات الشيعة «تحريم الختان، وقال (ما قالته الصَّابئة): إن المختتن راغب عن خلق الله. ولولا الشعر والظَّفر ميتان وعلى الحي مفارقة الميت ما قلمنا ظفراً، ولا خففنا شعراً»([416]).

وفي طقس أو ممارسة الختان يقف المندائيون واليهود على طرفي نقيض. فبالوقت الذي جعلته اليهودية شرطاً أساسياً من شروط الديانة، جعلت المندائية ممارسته خروجاً من الديانة. فمَنْ لا يختتن ليس يهودياً، بمعنى «الختان علامة انتماء للشعب اليهودي، وعلامة عهد بين الله وهذا الشعب»([417]). بينما في المندائية مَنْ لا يختتن ليس مندائياً، لأنه تجاوز فطرة جسد الإنسان، ولا يجوز إنقاص خلقة الله.

وفي الإسلام لم يذكر الختان في القرآن، وإنما أقره الفقهاء كسُنَّة بين واجب وغير واجب، فهو واجب لدى الشيعة الإمامية والزيدية، ومن أهل السُنَّة أوجبه المذهب الشافعي والحنبلي والإباضي، ولا وجوب له لدى المذهبين الحنفي والمالكي. أما ختان أو خفض البنات فلا يراه واجباً إلا المذهب الشافعي، والزيدي([418]).

عموماً، إن تحريم الختان من قبل المندائيين لم يعد مخالفة كبيرة للمحيط، ما دام هناك مسلمون وغير مسلمين، مثل المسيحيين، لا يقرون بوجوبه، ومنهم مَنْ يختتن ومنهم مَنْ لا يختتن. ومن جانب آخر هناك معارضة كبيرة ضد الختان في العالم، ذلك لآلامه وما يتعلق بعذاب الإنسان، وخاصة أن بعض العقائد لا تجيزه إلا بعد البلوغ، وقد انتقلت معارضته إلى داخل إسرائيل، حيث معقل اليهودية([419]).

ومن التاثيرات المندائية الأخرى في المحيط الإسلامي قصة صراع وانتصار هيبل زيوا المندائي على كائن الظَّلام الرَّوهة، متجسدة في مقالة «أصحاب ابن حرب» في محمد بن الحنفية، يوم يخرج من البلد الأمين ويقضي على الجبابرة بسيف من شق صاعقة يكور به الشمس.

«ثم يعود في عمق الأرض حتى إذا بلغ الماء الأسود والجوّ الأزرق صاح به صائح بسمع الثقلين (الجن والأنس): قد شفيت قد شفيت، فيمسك عند ذلك ويعود إلى البلد الأمين»([420]). فالماء الأسود عند المندائيين هو مكان كائن الظَّلام الرَّوهة في أسفل السافلين من طبقات الأرض، والجو الأزرق هو لون ثيابها. والدين المندائي لا يحبذ ارتداء الثياب الزرق، مثله مثل الدين الأيزيدي.

ينبأ الفقه والتاريخ الإسلاميين عن اعتراف ضمني وواضح بالدين المندائي. ولو سمع الخلفاء صوت المتشددين على شاكلة أبي سعيد الأصطخري وابن فضلان لما ظل على وجه الأرض مندائي. ولو كان وجودهم ينافي عقيدة الدولة الدينية، ويتعارض معها لاجتهد الفقهاء وتحايلوا على إزالتهم. ولو رأى الناس منهم، مثلما ورد في رسالة الشيخ العقيلي، لهبّت العشائر والمحلات على قمعهم، وهم القلة القليلة بين الملايين.

إلا أن تاريخهم العريق في أرض العراق، ووجودهم النافع في الاجتماع والاقتصاد، وصبرهم على مشاكسة المحيط، يجعلهم في مأمن من تجاوز يريد بهم ترك مرابع ألفوها منذ مئات السنين، وعقائد توارثوها أباً عن جد حتى أصبحت هويتهم، ولغة كانت يوماً لغة العراق. فكم هو محظوظ العراق أن فيه قوماً أنجبوا إبراهيم الصابئ، وسنان بن ثابت، وعبدالجبار عبدالله.

فهل ستأخذ الدولة العِراقية الجديدة بيد هؤلاء في الحفاظ على وجودهم السكاني بالعراق، وإعادة تأهيل لغتهم الآرامية؟ لِمَ لا! ونحن نرى دول العالم، وشعوبه المتحضرة، تبني المتاحف المحصنة من أجل الحفاظ على حجرة أو قرطاس، وتُعد الظُّروف الطَّبيعية من أجل حيوان يتجه نوعه نحو الانقراض! فكيف الحال بجماعة بشرية ما زالت تقاوم من أجل التحدث بلغة نوح، ويتصل بها تاريخنا السومري والبابلي، وتجمعها مع أديانّنا ومذاهبنا الأخرى المواطنة أولاً، والتاريخ ثانياً.

مراجع

التَّحقيق والملحق

- ابن أبي أصيبعة (ت668هـ)

عيون الأنباء في طبقات الأطباء. بيروت: دار الثقافة، الطَّبعة الثانية.

- ابن تغرى بردى، يوسف الأتابكي (ت873هـ).

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. مطبعة دار الكتب المصرية، 1929- 1932.

- ابن خلدون، عبدالرَّحمن بن محمد (ت 808 هـ)

مُقدمة ابن خلدون. تحقيق: علي عبدالواحد وافي. القاهرة 2004.

- ابن الفوطي، كمال الدِّين عبدالرزاق (732هـ)

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (ليس لابن الفوطي)، بغداد: المكتبة العربية 1351هـ.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت751هـ)

أحكام أهل الذمة. تحقيق: صبحي الصالح. دمشق: مطبعة الجامعة 1961.

- أبو يوسف، يعقوب القاضي (ت182هـ)

الخراج، بيروت: دار المعرفة 1979.

- الأشعري، سعد بن عبدالله (299 أو 301هـ)

المقالات والفرق. تحقيق: محمد جواد مشكور. إيران: مركز انتشارات أعلمي.

- الأَصفهاني، حمزة بن الحسن (ت 360 هـ)

تاريخ سِني ملوك الأرض والأنبياء. برلين: مطبعة كاوياني، بلا تاريخ طبع.

- الآلوسي، أبو الثناء محمود (ت1854هـ)

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- برنجي، سليم

الصَّابئة المندائيون (دراسة في تاريخ معتقدات القوم المنسيين). ترجمة: جابر أحمد. بيروت: دار الكنوز الأدبية 1997.

- بصري، مير

أعلام الأدب في العراق الحديث. لندن: دار الحكمة 1994.
- البغدادي، الخطيب (463هـ)
تاريخ بغداد، بيروت: دار الكتاب العربي.
- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت440هـ)
الآثار الباقية عن القرون الخالية. بيروت: دار صادر (مصور عن طبعة لايبزج 1923).
القانون المسعودي، الهند: حيدر أباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1954.
- البيضاوي، أبو سعيد عبدالله بن عمر (ت791هـ)
أنوار التنزيل وأسرار التأويل. مصر: دار الكتب الكبرى، طباعة حجرية.
- ترتون، أ س
أهل الذمة في الإسلام. ترجمة: حسن حبشي. القاهرة: دار الفكر العربي 1949.
- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ)
كتاب الحيوان، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
- الحسني، عبدالرزاق (ت 1995)
الصَّابئون في حاضرهم وماضيهم. بيروت: مطبعة دار الكتب، الطَّبعة العاشرة، 1980.
- الحموي، ياقوت (ت 626 هـ)
معجم البلدان. بيروت: دار صادر 1995.
- الخامنئي، علي
الصَّابئة.. حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدِّينية. بيروت: الغدير 1999.
- الخطيب، الشَّيخ علي
فقه الطَّفل. بيروت: مؤسسة العارف للمطبوعات 2002.
- دراوور، الليدي (ت 1972)
الصَّابئة المندائيون. ترجمة: غضبان رومي ونعيم بدوي. بغداد: مطبعة الديواني 1987.
- الديباجي، محمد
الأدباء الصَّابئة في العصر العباسي. الدَّار البيضاء: منشورات جامعة الحسن الثاني 1989.
- الذهبي، شمس الدِّين محمد بن أحمد (748هـ)

سير أعلام النبلاء. تحقيق: شعيب الأرنؤط ومحمد العرقسوسي. بيروت: مؤسسة الرسالة 1990.

- الذِّيب، سامي

ختان الذكور والإناث. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر 2000.

- الرَّازي، محمد بن أبي بكر (ت بعد 666 هـ)

مختار الصَّحاح. بيروت: دار الكتاب العربي، بلا تاريخ طبع.

- الرَّصافي، معروف (ت 1945)

الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس. كولونيا: دار الجمل 2002.

- رودولف، كورت

النشوء والخلق في النصوص المندائية. ترجمة: صبيح مدلول السهيري. بغداد: جامعة بغداد 1994.

- رومي، غضبان (ت1989)

تعاليم دينية لأبناء الصَّابئة. بغداد: مطبعة الجامعة 1978.

الصَّابئة. بغداد: مطبعة الأُمة 1983.

- الزِّركلي، خير الدِّين (ت1976)

الأعلام قاموس تراجم. بيروت: دار الملايين، الطَّبعة العاشرة 1992.

- الزمخشري، محمود بن عمر (ت538هـ)

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت: الدار العالمية للطباعة والنشر 1961.

- الزِّهيري، ترميذا عِصام خلف غصبان

الدِّين الأول مدخل إلى الدِّين المندائي، طبع خاص 2007.

- سركيس، يعقوب (ت1959)

مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد. بغداد: شركة التجارة والطَّباعة المحدودة 1955.

- السَّيوطي، جلال الدِّين (ت911هـ)

حِسن المحاضر في تاريخ مصر والقاهرة. مصر: المطبعة الشرفية 1909.

الإتقان في علوم القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية 1987.

- سَيوفي، نيقولا (ت 1901)

الصَّابئة عقائدهم وتقاليدهم. ترجمة: عارف أبو يوسف. دمشق: دار التَّكوين للتأليف والتَّرجمة والنَّشر، وسويسرا: منشورات تقاسيم 2010.

- الشافعي، محمد بن إدريس (ت204هـ)

كتاب الأم. بيروت: دار الكتب العلمية 1993.

- الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم (ت548هـ)

الملل والنحل. تحقيق: محمد سيد كيلاني. بيروت: دار المعرفة، بلا تاريخ طبع.

- الشيرازي، محمد الحسيني (ت2001)

تقريب القرآن إلى الأذهان، بيروت: مؤسسة الوفاء 1980.

- الصنعاني، عبدالرزاق بن همام (ت211هـ)

تفسير القرآن، الرياض: مكتبة الرشد 1989.

- الطَّباطبائي، محمد حسين (ت 1981)

الميزان في تفسير القرآن (لامكان ولا زمان نشر).

- الطَّباطبائي، محسن الحكيم (ت1970)

مستمسك العروة الوثقى. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- الطَّبري، محمد بن جرير (ت 310هـ)

تاريخ الملوك والرسل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر: دار المعارف 1960-1966.

تاريخ الأمم والملوك. بيروت: دار الكتب العلمية 2001.

جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق محمود وأحمد شاكر، مصر: دار المعارف.

- طه، الشيخ محمود محمد (قتل 1985)

الرسالة الثانية من الإسلام. إصدار المنظمة السودانية لحقوق الإنسان 1996.

- عجينة، محمد

موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها. بيروت: دار الفارابي، تونس: العربية محمد علي الحامي للنشر والتوزيع 1994.

- العلوي، هادي (ت1998)

شخصيات غير قلقة في الإسلام، بيروت: دار الكنوز الأدبية 1995.

- فراج، عبدالسَّتار أحمد

دِيوان مَجنون ليلى (جمع وتحقيق: فراج). القاهرة: دار مصر للطِّباعة، بلا تاريخ طبع.

- فضل الله، محمد حسين (ت 2010)

من وحي القرآن، بيروت: دار الملاك 1998.

- الفيروزآبادي، مجد الدِّين محمَّد بن يعقوب (ت 808 هـ)

القاموس المحيط. تحقيق: مكتب تحقيق التُّراث في مؤسسة الرِّسالة. بيروت: مؤسسة الرِّسالة 1998.

- القزويني، زكريا بن محمد (ت682هـ)

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. مصر: شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1972.

- القفطي، أبو الحسن يوسف (ت646هـ)

أخبار العلماء بأخبار الحكماء. مصر: مطبعة السعادة 1326هـ.

- كركوش، الشيخ يوسف حمادي (ت 1990)

تاريخ الحِلّة. النَّجف: المطبعة الحيدرية 1965.

- لفتة، الشَّيخ خلف، وعودة، كامل

القاموس المندائي. دار أنهر المندائية للطِّباعة والنَّشر 2004.

- الماوردي، أبو الحسن (ت 450هـ)

الأحكام السلطانية، بيروت: دار الفكر.

- المباركي، ماجد فندي

رجال الدِّين المندائيين (1800–2000). سدني: 2000.

- مراني، ناجية

مفاهيم صابئية مندائية. بغداد: مطبعة شركة التايمس 1981.

- المسعودي، أبو الحسن علي (ت346هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق شارل بلا. بيروت: الجامعة اللبنانية 1965–1973.

- المعري، أبو العلاء (ت449هـ)
لزوم ما لا يلزم. حرره وشرحه: كمال اليازجي. بيروت: دار الجيل 1992.
- مغنية، محمد جواد (ت 1979)
التفسير الكاشف، بيروت: دار العلم للملايين 1968.
- المقريزي، تقي الدِّين أحمد بن علي (ت845هـ)
الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار). لبنان: منشورات دار العرفان 1959.
- النَّجفي، محمد حسن (ت1850)
جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام. بيروت: دار إحياء التراث العربي 1981.
- النديم، إسحاق (ت438هـ)
كتاب الفهرست. تحقيق: رضا المازندراني. دار المسيرة 1988.
- الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري (ت468هـ)
أسباب النزول، بيروت: دار ومكتبة الهلال 1985.
- دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية. دمشق: المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية 1985.
- القلستا (ترانيم الزواج المندائية). ترجمة: أمين فعيل خطاب. بغداد 2003.
- كراس الرشامة والبراخة. بغداد: إدارة المدرسة المندائية.
- كَنزا ربا (كتاب المندائيين المقدس)، نسخة المستشرق مارك ليدزبارسكي، ترجمه عن الألمانية: كارلوس جيلبرت، سدني: منشورات الماء الحي 2000.
- كَنزا ربا، ترجمه عن لغته الأصلية الآرامية يوسف متي قوزي وصبيح مدلول السهيري، صياغة عبدالرزاق عبدالواحد، بغداد 2000.
- مجلة آفاق مندائية. مايو/ أيار، السنة الخامسة 2000.
- مجلة البيان، لمُنشئها الشَّيخ إبراهيم اليازجي، السنة الأولى 1897.
- مجلة المشرق البيروتية، السَّنوات 1900-1902.
- مجلة المقتطف، المجلد 23، السَّنة 1899.

---

[1] درجة دينية عُليا، لا تمنح إلا بعد مراسيم تعميد خاصة، وتعني مفسر الكتاب المقدس «الكنزربا».

[2] سيوفي، الصَّابئة عقائدهم وتقاليدهم، ص15 مقدمة المؤلف.

[3] نشرته العام 2010 دار التَّكوين ومنشورات تقاسيم بدمشق، وبترجمة عارف أبو سيف.

[4] مجلة البيان، السنة الأولى، 1897.

[5] سركيس، مباحث عراقية، 2 ص337. والليدي دراوور، الصَّابئة المندائيون، ملحق الصور بين الصفحتين 256–257.

[6] أبو سعد، السويد والبحث في المندائية، مجلة «مندائي»، الجمعية المندائية السويد، سبتمبر/ أيلول 1993.

[7] الكلام غير دقيق إنما هو أخذ مِمَن كتب قبله مثلما أشرنا في المتن.

[8] لغة العرب، المجلد الخامس، الجزء الخامس 1927، ص306.

[9] ريش أمة درجة دينية وتعني رئيس أمة، وهي أعلى مِن الكنزبرا، وأعلى درجة دينية فعلية لدى المندائيين، فدرجة الرَّباني محصورة بيحيى المعمدان حسب تقليدهم الدِّيني.

[10] أعلام الأدب في العراق الحديث، 1 ص310.

[11] راجع كتابنا الأديان والمذاهب بالعراق، الفصل الأول.

[12] زومير، الصَّابئة والصابئون، مجلة المقتطف، المجلد 23، السنة 1899.

[13] المصدر نفسه.

[14] المصدر نفسه.

[15] المباركي، رجال الدِّين المندائيين، ص119.

[16] يغلب على الظَّن أنه الشَّيخ حسن الخيون والد الشَّيخ سالم، الذي توفي في أوائل القرن العشرين، ولعلها السنة 1904.

[17] المباركي، رجال الدِّين المندائيين، ص130.

[18] مجلة آفاق مندائية، العدد الثالث عشر، مايو (أيار) 2000.

[19] المصدر نفسه.

[20] المصدر نفسه.

[21] دراوور، الصَّابئة المندائيون، ص99.

[22] أشرت إلى ذلك في كتاب «بعد إذن الفقيه»، فصل: أحكام العشق إباحة اللَّذة أهون الشَّرين، دار مدارك 2011.

[23] فراج، دِيوان مجنون ليلى، ص306.

[24] دراشة اد يهيا، ص195.

[25] الكَنزا ربَّا، اليمين، الكتاب الثامن عشر، طبعة سدني، ص437.

[26] الصَّابئة المندائيون، ص102.

[27] المصدر نفسه، ص57.

[28] عبادة، كتاب مندائي أو الصَّابئة الأقدمون (وظائف العلماء)؛ ودراوور، الصَّابئة المندائيون، ص252.

[29] نجد لهذا الرَّجل موقفاً محموداً آخر، وهو سعيه لحماية مواطنيه اليهود العراقيين مِن الفرهود بالحِلّة، وهو متصرفها، وذلك عندما قتلت الجماعات المتأثرة بانقلاب 1941. سيأتي ذكر ذلك لاحقاً.

[30] مجلة التراث الشعبي، العدد 11، 1974.

[31] الحسني، الصَّابئة في ماضيهم وحاضرهم، ص10.

[32] المصدر نفسه، ص7–8 الهامش.

[33] آفاق مندائية، العدد الثالث عشر، مايو/ أيار 2000.

[34] ماجد فندي، رجال الدِّين المندائيين، هامش ص 85، حسب رسالة الشَّيخ ترميذا رافد بن الشَّيخ عبدالله. والمعلومات الخاصة بالشَّيخ عبدالله مستقاة من المصدر المذكور ومن الشَّيخ نفسه.

[35] ماجد فندي، رجال الدِّين المندائيين، ص83. والمعلومات الخاصة بالشَّيخ عبدالله مستقاة من المصدر المذكور ومن الشَّيخ نفسه.

[36] المصدر نفسه، ص84.

[37] المصدر نفسه.

[38] الأعراف: 85.

[39] ورت هذه الرَّسالة مِن الأخ نزار حيدر، وهي عبارة عن تعليق على ما نقلته عن الشَّيخ عبدالله بخصوص ترجمة كتاب «الكَنزاربا»، أنشر منها النَّص الآتي، وذلك لطولها:

الإخوة المندائيون جميعاً،

لقد كثر الحديث وطال، وأخذ مديات كبيرة موضوع ترجمة كتابنا المقدس كنزا ربا.

منذ عشر سنوات صدرت الترجمة العربية لكتاب كنزا ربا، والكل يعرف أو اطلع عليه، وربما اقتناه ولديه نسخة منه إما بالحجم الكبير أو الصغير، وهنا لا نريد أن نعيد كلاماً قلناه سابقاً، لأنني أعتقد أن الموضوع أشبع نقاشاً، من جميع النواحي، وتحدث مِن تحدث، واعترض من اعترض، ورحب من رحب، ودافع عن المشروع من دافع.

لكن أن الترجمة أصبحت حقيقة ثابتة ثبات الجبال، ومع احترامنا وتقديرنا لكل من اعترض أو كان له رأي مغاير لتلك الحقيقة قلنا ونقول له: هذا ما قدّرنا الحي العظيم عليه عمله، خدمة لطائفتنا بعد جهد جهيد بذله إخوانكم أعضاء اللجنة المشرفة على ترجمة كتابنا المقدس كنزا ربا، ولمدة أربع سنوات متتالية، ضحوا فيها بأموالهم وراحتهم، وراحة عوائلهم، وقدموا كنز الطَّائفة على طبق مِن ذهب هدية إلى إخوانهم المندائيين، ليطلعوا عليه عن قرب وليتفاخروا به، ويفهموا محتواه.

ولكي يطلعوا أولادهم وعوائلهم وأصدقاءهم عليه بدون تردد ولا خوف، لتنتهي إلى الأبد صفحة الخوف الأزلي، الذي زرع في قلوب المندائيين من الجهل والخوف من محتواه، الذي توارثناه في قلوبنا عن أجدادنا وآبائنا، وأصبح كل شيء عنه بمتناول الجميع، وبداية الصفحة الجديدة المشرقة من تاريخ ووجود الدِّين المندائي. وما الذي يحصل هذه الأيام مِن سجالات ونقاشات وطرح للأفكار والمناقشات بجميع مستوياتها ما هو الا انتعاش فكري وصحوة ثقافية للمندائيين، كان سببها المباشر صدور التَّرجمة العربية لكتابنا المقدس كنزاربا.

هنا أود أن أشير إلى ما ورد في كتاب الأستاذ رشيد الخيون، الذي صدر وهو إعادة لطبع كتاب مندائي أو الصَّابئة الأقدمون، من تأليف عبدالحميد أفندي عبادة، والذي أضاف عليه معلقاً الأستاذ رشيد ما يلي:

قصدت الشَّيخ عبدالله في داره بمانشستر شمال بريطانيا، وكان غاضباً من الصِّياغة العربية للكتاب المقدس، وقال بالحرف الواحد إنه كفر وإلحاد وتشويه لكلام الله، وسينزل الله غضبه على مَن شوّه الكتاب ويقصد بذلك الطَّبعة التي صدرت ببغداد لعام 2000 الصفحة 33.

وهنا أود أن أعلق على ما ورد في الكتاب، خصوصاً وأنا قد التقيت بالأستاذ رشيد الخيون في أربيل في مؤتمر دعم الديمقراطية قبل سنوات (2007)، وأخبرني حرفياً بما ورد على لسان المرحوم الشَّيخ عبدالله الشَّيخ نجم، وشرحت له كل الحيثيات التي دفعت الطَّائفة لترجمة كنزا ربا، وما كان يمر عليها مِن ظروف صعبة وتهديد بالاستباحة للمندائيين من قبل خطباء الجمعة.

ثم استطردنا بالحديث وطرحنا حقيقة ربما يجهلها أغلب المندائيين، وهي أننا تأكدنا من أنه لا يوجد مندائي واحد يتقن اللغة المندائية في تسعينيات القرن الماضي عندما بدأنا بالمشروع، وأن أحسن مندائي لا يتقن، وللأسف، أكثر من 20% من هذه اللغة المهددة بالانقراض والزوال. مما اضطرنا إلى البحث عن مترجم متمكن مِن خارج الطَّائفة حتى عثرنا على الدكتور الأستاذ يوسف قوزي، والذي وللتاريخ أوصلنا إليه الدكتور صبيح مدلول، والذي عمل مع الدكتور قوزي في الترجمة.

كانت لجنة الترجمة قد أصدرت كتيباً بعنوان «قصة ترجمة كتابنا المقدس كنزا ربا» قبل سنوات، وقد ذكرت

أني مستعد لأن أبعث القصة الكاملة للترجمة إلى أي شخص يطلبه مني عن طريق الإنترنت، ولا أريد ان أعمم نشرها لأنني لا أريد أن أنكأ الجروح التي بدأت تشفى.

أرجو من الأخ حميد الشَّيخ دِخَيِّل أرسال رسالتي هذه إلى الأستاذ رشيد الخيون، كي يراجع ما كتبه تعليقاً في الكتاب وقبل طبعه، أو على الأقل وضع تعليق لجنة الترجمة بجانب ما نقله عن المرحوم الشَّيخ عبدالله، كي لا تكون هذه الكلمات مصدراً مزعجاً للمندائيين وأصدقائهم، ولكي تحل الرحمة على من لاقوا ربهم وسيلاقونه لاحقاً. أخوكم المخلص، نزار ياسر الحيدر، عضو لجنة ترجمة كتابنا المقدس، كنزا ربا.

[40] رجال الدِّين المندائيين، ص135 عن آخرين.

[41] دراشة يهيا، الهوامش ص 223.

[42] رسالة الشَّيخ ستار جبار حلو بشأن ما أُشير إليه حول ما أخبرني به الشَّيخ عبدالله نجم في شأن موقف المندائيين من تعدد الزوجات لرِجال الدِّين.

[43] الليدي دراوور، الصَّابئة المندائيون، ص60.

[44] الكَنزا ربَّا، اليمين، الكتاب الثامن عشر، طبعة سدني، ص437.

[45] المصدر نفسه.

[46] وهذا ما أخبر به شيوخهم الليدي دراوور (الصَّابئة المندائيون ص50).

[47] عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، 1 ص243.

[48] القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص116.

[49] المصدر نفسه، ص45.

[50] المصدر نفسه، ص24.

[51] هكذا وردت.

[52] أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي (ت243هـ) الزاَّهد، هجره صاحبه الإمام أحمد بن حنبل، لأنه كان يقول بعلم الكلام «فاختفى لتعصب العامة لأحمد، فلم يصلِّ عليه (عند وفاته) إلا أربعة نفر».

[53] الرَّازي، مختار الصَّحاح، ص354.

[54] لم ترد هذه العبارة في القاموس المحيط للفيروزآبادي، بل وردت: صبأ: خرج مِن دين إلى دين، والصَّابئون يزعمون أنهم على دِين نوح، عليه السَّلام، وقبلتهم مِن مهب الشِّمال عند منتصف النَّهار (القاموس المحيط، ص45). إلا إذا قُصد قاموس آخر.

[55] مأخوذ من الكلمة الآرامية صبأ، وتعني الارتماس بالماء والمعمودية، وليست صبأ العربية، ومعناها الخروج من دين إلى آخر (مقدمة كتاب الصَّابئة المندائيين لليدي دراوور، ص1، 9). وهناك رأي يأتي به ابن قيم الجوزية في «أحكام أهل الذِّمة»، ثم الكرملي في مجلة «المشرق»، ثم محمد جواد مغنية في التفسير، يفيد أنهم عرفوا بالصَّابئة لعلاقتهم بضياء النُّجوم (انظر الملحق: المندائية في فقه وتاريخ الإسلام).

[56] المعروف أن المندائي، وهي التسمية الصحيحة للصَّابئة، كلمة آرامية، ومندا تعني العلم والمعرفة، فالمندائي هو صاحب الدراية الإلهية أو العارف بالله (كتاب الكَنزا ربا،= =طبعة بغداد، وبرنجي، الصَّابئة المندائيون، ص50)، ومنها اسم الملاك مندادهيي، ويعني العارف الأول، أو الحياة الأُولى.

[57] الآيات الثَّلاثة واضحة، فهي لم تسمِّ أهل الكتاب، وإنما أسمتهم بأديانهم، اليهود والنَّصارى والصَّابئة، وأن فتاوى عديدة صدرت مِن مفسرين وفقهاء تؤكد أنهم أهل كتاب، وهي صحف آدم وإبراهيم، ولا علاقة لهم بالزبُّور لأنه من كتب اليهود (راجع الملحق).

[58] القاموس المحيط، ص45.

[59] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 1 ص285.

[60] المؤلف تلاعب في عبارة الشَّهرستاني وهي «الصَّابئة كانت تقول: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً، وذلك لزكاء الرُّوحانيات وطهارتها» (الملل والنحل 1 ص230).

[61] حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 1 ص12. قال السيوطي: «وكانت ملة الصَّابئة، وهي توحيد الله والطَّهارة والصَّلاة والصَّوم، وغير ذلك مِن رسوم التعبدات».

[62] البقرة: 62.

[63] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 1 ص158. وردت العبارة في الأصل: قوم من النصارى والمجوس، والأمر مختلف عن قول البيضاوي: قوم بين النَّصارى والمجوس.

[64] المصدر نفسه.

[65] وردت الآلوس.

[66] البقرة: 62.

[67] الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 1 ص279.

[68] بعد الاستفسار من الشَّيخ عبدالله الشَّيخ نجم، والبحث في مصادر التاريخ، لا وجود لفرق صابئية باسم الكاظمة والبيدانية والقنطارية، ما عدا الحرانية، والمقصود بها صابئة حران. أوردها المقريزي في الخطط المقريزية أو المواعظ والاعتبار 3 ص290، فقال عن الكاظمة: «الجمع بين شريعة إدريس وشريعة نوح وشريعة إبراهيم عليهم السَّلام».

أما معلومة عبادة فمنقولة عن الأب أنستاس الكرملي عن ابن خلدون: وهم طوائف منها: الكاظمة أصحاب كاظم بن تارح، والبيدانية أصحاب بيدان الأصغر، والقنطارية أصحاب قنطار بن ارفكشاد (مجلة المشرق، مايو/ أيار 1901). لكن هذه

المعلومات غير متوفرة في طبعة البيان لمقدمة ابن خلدون، فلا وجود للكاظمة ولا البيدانية ولا القنطارية، وتبدو غير معقولة، فمن أين لإبراهيم أخ يدعى كاظم؟ !كذلك ذكرها عبدالرَّزاق الحسني من دون الإشارة إلى المصدر (الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ص19).

[69] يعني الشَّيخ دِخَيِّل بن الشَّيخ عيدان. وأكد الشَّيخ عبدالله أن هذه ليست فرقاً، ففي الصَّابئة لا وجود للفرق، وإنما هي تسميات عوائل وبيوت، وليست مذكورة في كتاب الكَنزا ربَّا. فربما قرأ الشَّيخ دِخَيِّل على مسامع المؤلف سجلاً لعائلات المندائيين وعشائرهم، فاعتقد المؤلف أنه كتاب الكَنزا ربَّا.

[70] من عشيرة الخميسية.

[71] من آل زهرون.

[72] لا وجود لهم.

[73] ليس هناك بنكانية، وإنما هناك عائلة مندائية كبيرة بالناصرية تدعى البنكانية (رجال الدِّين المندائيين، ص129).

[74] واسم الكتاب دراشة يهيا، أي تعاليم ومواعظ يحيى، وادرافشة تعني الراية الصابئية.

[75] اللغة المندائية هي الآرامية الشرقية، وليست السريانية، قال الشَّيخ عبدالله: إن الآرامية أخت السريانية، ولغتنا آرامية.

[76] الحموي، معجم البلدان 2 ص 235. وما بعدها مأخوذ أيضاً مِن ياقوت الحموي.

[77] العنكبوت: 26.

[78] الأنبياء: 71. وردت في الأصل «ونجينا لوطاً...»

[79] أورد هذه التَّسمية أبو الريحان البيروني في الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص205، بالقول: «قرية أخرى تسمى ترع عوز أي باب الزُّهرة».

[80] نوع مِن خُضار الخيار مشهور، يسمّيه العراقيون تعروزي. أما النِّسبة إلى ترعوز فهي ترعوزي وهذا غير موجود.

[81] جبل، قيل بحران وهي شمال بين النَّهرين، وقيل بإيران (الليدي دراوور، الصَّابئة المندائيون، ص46–51)، والشائع أن جبل مادي هو شمال العراق.

[82] يعرف بيت العبادة عند المندائيين بالمندي، وليس الكنيسة.

[83] وردت في الأصل ذهب.

[84] آرامية.

[85] الكنز العظيم.

[86] سبقت الإشارة إلى اسمه دراشة اد يهيا، أي أحاديث يحيى.

[87] آرامي.

[88] آرامي العبارة.

[89] دارشة اد يهيا.

[90] آرامي العبارة.

[91] يعرفون في كتاب الكَنزا ربا بالكائنات النورية، لهم طبيعة الملائكة، فكثيراً ما يتردد اسم الفرد منهم بالملاك.

[92] مارادربوثا: ملاك أُثري نوراني ويكنى سيد العظمة (الكنز ربا، طبعة بغداد، مصطلحات قسم اليمين).

[93] وردت في الأصل هيفل زيوا، أي الملاك جبرائيل.

[94] وردت في الأصل شيشلام ربو.

[95] ربما قصد هوشابه أي الذي يحمل الأرواح إلى مطراثه في يوم الأحد (الليدي دراوور، الصَّابئة المندائيون، ص135.

[96] وردت في الأصل: مندالي، وهو ملاك نوراني، العارف بالحياة.

[97] سام زيوا: ملاك نوراني وأحد أبناء الأُثري يوشامن (الحياة الثانية) (كنزاربا، طبعة بغداد، مصطلحات قسم اليمين).

[98] وردت في الأصل: هبشيه، وتعني يوم الأحد.

[99] سيماث هيي: كنز الحياة (الكَنزا ربًّا، طبعة سدني، فهرس المخلوقات العليا والسفلى).

[100] الصحيح أنها «الانا اد ماريي يانقي» وهي الشَّجرة المربية للأطفال (الليدي دراور، الصَّابئة المندائيون، ملحق الصور، ص256–257)، ولا وجود لمهزيون ملاله حسب ما ورد أعلاه نقلاً عن مجلة البيان، وكلمة ملالا اسم يعني الكلمة (الكَنزا ربًّا، طبعة سدني).

[101] أباثر أو أواثر: ملاك الميزان، ويمثل الحياة الثالثة بعد منداهيي ويوشامن.

[102] ابثاهيل أو بثاهيل: ملاك يمثل الحياة الرابعة، شارك في عملية الخلق والتكوين، أما زاهرئيل فهي إحدى العفريتات، (الكَنزا ربًّا، طبعتا بغداد، وسدني، باب المصطلحات). لكن في البراخة أو الصَّلاة تأتي العبارة: «اسوثا وزكوثا نهويلخ ملكا ايثاهيل برزاهييل» (سلام وتحية عليك أيها الملك). (سليم برزنجي، الصَّابئة المندائيون، ص231).

[103] وقع كثير مِن الباحثين في خطأ اعتبار المندائيين يقدسون النبي إبراهيم، والحقيقة هو بهرم ربه أحد الملائكة المباركين عندهم، ويرد اسمه في العماد، بعبارة: «بسم الحي ربي اصطبغت بصبغة إبراهيم الكبير ابن القدرة صبغتي تحرسني وتسمو بي إلى العلا» (ناجية المراني، مفاهيم صابئية مندائية، ص 112).

[104] وردت في الأصل ربي قدموى.

[105] مار ادربوثا: سيد العظمة، ومن أسمائه: الروح العظمى (الليدي دراوور، الصَّابئة المندائيون، ص133).

[106] مِن الصَّمد مِن مرادفات القوة، والمصمت الذي لا جوف له، والصُّمدة الصَّخرة، والرَّجل الذي لا يجوع ويعطش في الحرب (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص294).

[107] هيبل زيوا أو زيوه.

[108] آلمه أد هشوخه: عالم الظلام أو جهنم أو ويله (الويل) أو نوره أد ياقده (النار الموقده). (غضبان رومي، تعاليم دينية لأبناء الصَّابئة، ص12).

[109] روهه أو الرَّوهي: ملكة الظَّلام.

[110] كارفيون: أحد العفاريت (الكَنزا ربَّا، طبعة سدني، فهرس أسماء المخلوقات)، وفي الكتاب الخامس، كتاب هيبل زيوا، يكون كارفيون أخاً للروهه، وهي فيما بعد تضطجع مع ولدها أور وتنجب منه سبعة أبناء.

[111] أهم شخصيات عالم الظَّلام، ويدعى سلطان الظلام، يجسد الشر بأمه الروهه (الكَنزا ربَّا، طبعة سدني، فهرس أسماء المخلوقات).

حسب الأب الكرملي وما قرأه مِن التَّوراة باللاتينية، وما أخطأ في ترجمته الآباء اليسوعيون: «أنت الرَّبُّ الإله الذي أخرجته (أي أَبرام) مِن نار الكلدانيين»، أما ترجمة الآباء اليسوعيين فعرَّبت الآية عن أصلها العبراني فقالت: «مِن أور الكلدانيين». وسبب هذا الفرق في الاستخراج أن اسم النَّار واسم مدينة الكلدانية أُور هما واحد بالعبرية» (الكرملي، الصَّابئة أو المندائية، مجلة المشرق، السَّنة الثَّالثة 1900، ص 783). وقرأت في القاموس المندائي أن «أور» تعني أيضاً: عَمِيَ، أي أصبح أعمى (لفتة وعودة، القاموس المندائي، ص8).

[112] رود: زوجة رام، الزَّوج والزَّوجة اللذان بقيا بعد فناء العالم بالسَّيف والوباء، وتكوّنت منهما الذِّرية الثَّانية بعد آدم وحواء (الكَنزا ربَّا، طبعة بغداد، مصطلحات اليمين. والكَنزا ربَّا، طبعة سدني، فهرس المخلوقات). هذا مِن جانب، ومِن جانب آخر إن أُور في أول ولادته وصف بالدودة، جاء في النَّص: «فألفيته لم يبرح مستلقياً في الماء الأسود، وهو يتقلب ويتخبط مثله مثل الدودة» (الكَنزا ربَّا، القسم الأيمن، الكتاب الخامس، طبعة سدني، ص170).

القصة في ما يتعلق بأرض الحديد ليست كما أوردها عبادة، بل وردت في الكنزرابا كالآتي على لسان ياوار هيبل، الكائن النوراني الخفي والوسيط، وهو هيبل زيوا نفسه: «أريد أن أنزل كرة أخرى إلى عالمه (أور) لأصنع تحت الماء الأسود أرضاً نحاسية وأجعلها صلبة بحيث يبلغ سمكها ثمانمائة وثمانين ألف ميل، لكي يستند عليها أور. لما نطق فمي بهذا، أنا ياوار هيبل، نشأت الأرض من نفسها وأصبحت حقيقة واقعة» (كنزاربا، الأيمن، الكتاب الخامس، طبعة سدني، ص170 وما بعدها).

[113] لا وجود لهذا الاسم.

[114] جمع جحيم.

[115] العالم السَّامي أو مكان الحق أو العهد، وهو الجنة المندائية ومكانها في جهة الشِّمال أو الجدي.

[116] الصَّحيح: ألمه دنهوراه، عالم النور.

[117] وردت بالأصل آدم كوره قدماي. إن مهمة خلق آدم، ليس كما وردت أعلاه، بل يقوم بها الملاك بثاهيل اثرا بإيعاز من أبيه أباثر وبقدرة الله،، رمز الحياة الرَّابعة، ثم تنفخ الملائكة فيه الروح لكنها تعجز عن بث الحياة فيه، ويتمكن من ذلك الملاك الأول منداهيي، جاء في النص: «وبينما يده (بثاهيل) موضوعة عليه، عطرته أنا (منداهيي) برائحة الحياة» (رودلف، النشوء والخلق في النصوص المندائية، ص142).

[118] مطهر للعقاب.

[119] وردت في الأصل هيفل زيوة.

[120] الصَّحيح اره تيبل: الأرض (غضبان رومي، الصَّابئة، ص180).

[121] وردت في الأصل كيسه.

[122] وردت في مقالة السيوفي (مجلة البيان) كانونا. وهناك إشارة إلى أن كانات هي إحدى بحارة ناقلات الأرواح (الليدي دراوور، الصَّابئة المندائيون، ص137). ولعلها كنات نطفتا، التي وردت في دراشة يهيا، في الفصل الخامس والستين، ص202، وهي التي حررها منداهيي من عالم الظلام.

[123] الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان. ويقصد بالمجلات المقتطف، والمشرق، والبيان.

[124] الرقم غير صحيح، فقد ورد في النسخة العربية للكنزاربا وما قرأه لي الشَّيخ عبدالله من النسخة الآرامية أن عمر الحياة منذ آدم تبلغ أربعمائة وثمانين ألف عام (480000)، راجع: (الكَنزا ربا، الكتاب اليمين، الثامن عشر، ص427، عن ترجمة المستشرق مارك ليدزبارسكي، منشورات المادء الحي، سدني، أستراليا. (حذف هذا الفصل وفصول أخرى من طبعة الكَنزا ربًّا، بغداد 2000).

[125] وردت العبارة كالآتي: وامتد زمن التناسل 150000 أولاد رام.

[126] شورباي وشارهبيئل (الكَنزا ربًّا، الأيمن، طبعة سدني، الكتاب الثامن عشر، ص428).

[127] أرودان كايموراط (المصدر نفسه، ص429).

[128] زاردان نایاط لاهموراط (المصدر نفسه).

[129] لبرييوش زيهناك (المصدر نفسه).

[130] بروق الإسكندر الأغريقي (المصدر نفسه، ص430).

[131] اشاق بن اشقان (المصدر نفسه).

[132] ياسديس طبيان (المصدر نفسه).

[133] اردبان (المصدر نفسه)

[134] وردت في الأصل هيفل زيوه. المعلومة غير موجودة في كتاب الكَنزا ربًّا.

[135] عماميت اسم من أسماء الروهه (الكَنزا ربًّا، الأيمن، طبعة سدني، فهرس المخلوقات). نرى ذلك في الفكر اليهودي في ظهور المسيح المُخلّص، وفي الإسلام بظهور المهدي المنتظر، بعد أن تُملأ الدُّنيا بالفساد والفجور، وما عماميت إلا رمز للفساد والظُّلم (في قضية المهدي كنا بحثنا ذلك بتفاصيل في كتابنا: مائة عام مِن الإسلام السِّياسي بالعِراق، الجزء الأول، فصل المهدويون، دار مدارك، 2011).

[136] وردت عن ما.

[137] الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان.

[138] أي سفينة نوح.

[139] سبق تصحيح الاسم.

[140] سبق تصحيح الاسم.

[141] باشام نريمان (الكَنزا ربًّا، الأيمن، طبعة سدني، ص430).

[142] الكاركوم (المصدر نفسه)، واسم لأحد العفاريت.

[143] طوران (المصدر نفسه).

[144] ايشو.

[145] النبي محمد.

[146] وردت في النص: ازدجر. المقصود يزدجرد الثالث (631–651) بن شهريار بن برويز بن أنوشروان، آخر ملوك الفرس.

[147] كذلك وردت ازدجر.

[148] الشَّيخ دِخَيِّل.

[149] المقصود يحيى بن زكريا، قال لي الضَّليع في تاريخ دينه الشَّيخ والمربي أبو سلام زهرون السَّام، وهو من أهل ميسان: إن النص القرآني الآتي نزل فيهم: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا} (مريم: الآيات 12 إلى 15).

فهم يعتبرون يحيى بن زكريا الرَّباني الوحيد، وهي أعلى درجة دينية لا تنطبق شروطها إلا على يحيى، فهو الوحيد الذي رُفع بجسده إلى السَّماء، فدونها من الأكبر إلى الأقل: ريش أمة، الكنزبرا، وتلميذة، وشكندة، والحلالي. وأن الكتاب المقصود هو كتابهم المقدس «كنزا ربَّا». وهو حسب تاريخهم أحيا الدِّين المندائي بعد انقراض. يدعونه في لغتهم الآرامية، التي ما زالت حية على شفاه شيوخهم: «يهيه يهانا» أو«يهيا يوهانه»، أي يحيى، والكلمتان تعنيان يحيى أو يعيش (رومي، الصَّابئة، ص143)، وعنهم أخذتها العربية: «يحيى». ويقرأ المندائيون لهذا الرَّباني «دراشة أد يهيا»، أي تراتيل يحيى.

[150] وردت في الأصل: انشى، الياصبات وتعني الشَّيخة والدة يحيى، وأبو صابا تعني الشيخ زكريا، وقد عدلت إلى انشبي أينما وردت، راجع: دراشة اد يهيا، الفصل 15، الرؤيا، ص47.

[151] الصَّحيح: يهيا يهانا.

[152] وردت في الأصل: صادا، وقد عدلت إلى صابا أينما وردت، راجع: المصدر نفسه.

[153] أبو صابا هو زكريا (راجع: دراشة يهيا، الهوامش، ص225).

[154] إحدى العفريتات أو ابنة الروهه.

[155] واسمها «الانا اد ماريي يانقي»، وليس هناك شجرة بهذا الاسم، بل جاء في كتاب دراشة يهيا، الولادة المعجزة، ص90 على لسان يحيى: «سمع الملاك أنش أُثرا ذلك، فأصطحبني، وصعدني حتى وصل ذُرى جبل بروان الأبيض، حيث يُربى الأطفال هناك، وعلى الماء المبارك يعيشون».

[156] وردت في الأصل اتش أثرا.

[157] وردت أبو صادا، أي زكريا (راجع: دراشة يهيا، ص91 والهوامش، ص225).

[158] وردت صادا.

[159] أضفنا احتفل ليستقيم المعنى.

[160] وردت في الأصل اتشى أثرا.

[161] ورد معظم النَّص في كتاب دراشة يهيا.

[162] ورد ذلك في كتاب: دراشة ايهيا، ص60، النَّص الثَّامن عشر، والعبارة: «لم تستطع النِّساء أن يسقطنك في كيدهنَّ، ولم يغضبنك بكلامهنَّ».

[163] راجع دراشة يهيا، الفصل الثامن والعشرون، ص84 وما بعدها.

[164] جاءت قصة قبض روح يحيى مفصلة في الكَنزا ربَّا، الكتاب الخامس، الجزء الرابع، ص190–195، طبعة سدني. وفيها طلب منادهيي من الله أن يجعل اليوم ساعة واحدة، ويبدل النَّهار باللَّيل لكي ينام يحيى، ولتكن روحه شبيه بشخص طيب

العظمة، فصعدت روحه وكأنه نائم.

[165] الملاك الذي علم الإنسان الأول العقيدة، وهو الرَّسول الأول، ويُلقب بمساعد النُّور (كتاب دراشة يهيا، ص228).

[166] وردت في الأصل منديايي.

[167] كذلك.

[168] كذلك.

[169] كذلك.

[170] ملاك نوراني ويسمى سوريل شارويا (الكَنزا ربَّا، مصطلحات اليسار، طبعة بغداد) أو ساورئيل: من أسماء القمر ومن أسماء ملك الموت (الكنزربا، فهرس المخلوقات، طبعة سدني).

[171] وردت منديايي.

[172] كذلك.

[173] كذلك.

[174] نهر يفصل بين المطراثي والفردوس، عالم النور (عبدالرزاق الحسني، الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ص80). ولا ندري إن كان الحسني قد استلها من كتاب عبدالحميد عبادة، دون الإشارة إليه.

[175] وردت في الأصل قطرايي.

[176] وردت في الأصل منديايي.

[177] النَّجم القطبي جهة الشِّمال.

[178] إنها فارس على الغالب، هذا ما يؤكد سياق ترتيب المدن.

[179] يقصد ما ترجمه الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان.

[180] وردت المعلومة عند ابن خلدون، المقدمة 2 ص 774.

[181] وردت درجة.

[182] وردت: أعوراً.

[183] ورت أطرشاً.

[184] وردت أبرشاً.

[185] أو كَنزافره.

[186] كتاب المندائيين المقدس: كَنزا ربَّا.

[187] وردت في الأصل أبو يسقي، وعند الليدي دراوور أبيسق، وهو كاهن خاص بمراسيم زواج الارامل والثيبات، ولا يعني أنه كنزبرا ثانٍ (الليدي دراور، الصابئة المندائيون، ص117)، وقد صححها لي الشَّيخ عبدالله نجم فقال: بيسق، وهو الكاهن الثَّاني، أو الثَّانوي.

[188] الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان.

[189] وردت في الأصل تحت عنوان: الذَّبح الخاص بالعلماء.

[190] اللباس الدِّيني، ثوب النور.

[191] كلمة زائدة.

[192] إضافة ألف ولام لإتمام المعنى.

[193] الصحيح قراءة آرامية، لأن المندائية لهجتها الشرقية.

[194] عمياء.

[195] غير متداولة بين المندائيين.

[196] أبو الثَّناء شهاب الدِّين محمود الآلوسي (ت 1854)، صاحب «تفسير المعاني» المعروف.

[197] المائدة: 5.

[198] الإمام أبو حنيفة النُّعمان (ت 150 هـ).

[199] وهما: قاضي القضاة أبو يوسف (ت 182 هـ) صاحب كتاب الخراج، ومحمد بن الحسم بن غرقد الشَّيباني (ت 189 هـ).

[200] الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 1 ص279.

[201] المصدر نفسه.

[202] معروف أن كتاب الزَّبور هو من كتب اليهود، وهو كتاب النبي داوود، ويسمى أيضاً بمزامير داوود. سيأتي شرح الموقف الفقهي منهم في الملحق «المندائيون في الذَّاكرة الإسلامية»، وهو ليس مثلما ذهب إليه مؤلف الكتاب عبادة.

[203] وردت في الأصل: تعميد الأطفال.

[204] ليس لدى المندائيين درجة دينية بهذا الاسم، إنما هي مِن لدن المسيحيين، وبمثابة مساعد القس، أو خادم المذبح. لعل المؤلف قصد اشكَندا أو الشكَنده، وهو مساعد أو معاون الكاهن (لفة وعودة، القاموس المندائي، ص333. انظر الرومي، الصَّابئة، ص134).

[205] وردت خطأً الآلهة.

[206] بهرم ربه، لا علاقة له بإبراهيم الخليل.

[207] قدمنا هذه الفقرة كي تكون مناسبة مع سياق الكتاب، والحديث عن الأطفال وتعميدهم..

[208] وردت في الأصل خطأً: ادرافشة يهي.

[209] مندائي.

[210] المندائي.

[211] أضفنا هو ليستقيم المعنى.

[212] مهتم زهرن بر ياسمن، كما ورد في رجال الدِّين المندائيين (1800–2000)، الكَنزِبرا دِخَيَّل الشيخ عيدان الشَّيخ داموك، ص119.

[213] يمكن أن تكون هذه الممارسات نافذة قديماً، لكنها في الوقت الحاضر مع شيوع المدنية لا أثر لها، وإن التَّقيد يظل عند رجال الدِّين قائماً.

[214]آرامية – مندائية وليست سريانية.

[215] وردت: ركبتهم.

[216] المندائي.

[217] آرامية – مندائية.

[218] يقصد عند المسلمين.

[219] وردت في الأصل: كشطه ستحون باشم هو ادهي ربى اسوثه وزكوثه نهبيلخ يا بابه أبوهم ملكه برياويز يردنه، ربى ادمي هي.

[220] وردت في الأصل خطأً: هللن بيداً وكشطه وصفت بهيمني واثه ملني ملاني زيوه اصفن طبنى باصرى دنهوره.

[221] وردت في الأصل خطأً: ابرخ واشمخ اشهيو مشمخ مارى ومندادهيي ابرخ وشيا الهاخ برصوفة ربه بيقاره منافلش وافرش. وترجمتها، حسب الأصل، تبارك اسمك وسبحان اسمك ربي الحي مجري هذا ومكونه من نفسك ولم يعلم به أحد.

[222] ارشمت بورشمة الهي وماري ومندادهيي. وترجمتها، حسب الأصل، رسمت برسم الحياة.

[223] أذني شم وقالدهي. وترجمتها، حسب الأصل، أسمع صوت الحياة.

[224] وردت في الأصل خطأً: انهير ادهي. وترجمتها، حسب الأصل، من المملوئين تسبيحاً بالحياة.

[225] وردت في الأصل خطأً: ثمي بوثه تشبه طملى. وترجمتها، حسب الأصل،

[226] وردت في الأصل خطأً: بركي ببريقت الساقت إلهي ربي. وترجمتها، حسب الأصل، ركبتي الساجدة إلى الرب الحي.

[227] وردت في الأصل خطأً: رغلي مدريخه بدركي وقشطه وهيمني واثه. وترجمتها، حسب الأصل، رجلي ماشية لشريعة العهد والإيمان.

[228] روشمه الاوى لاهي بنوره ولاهي يمشه ولاهي ابدم شيها ياروشمه امشي رشمي برونه ربا مياهي اكفتح بهشوخه والمرس بيردنه اتش بهيلا لا مصى. وترجمتها، حسب الأصل، رسم عليَّ أني لست من عباد النار، ولا من المختتنين (لا اليهود ولا الإسلام)، ولا أنا مسيحي.

[229] الآرامية–المندائية.

[230] وردت في الأصل خطأً: مضاتن مصفتي بهرام ربي رورد ربي مصفتي تناطري لنسق الرش. وترجمتها، حسب الأصل، أني فلان ابن فلانة أتعمد تعميد بهرام ربي الملك الصالح من الملائكة الصالحين، تعمدني وانظرني وأصعدني إلى الرأس.

[231] وردت في الأصل: شده وأترسل لا تشلط لي.

[232] وردت: أياديهم.

[233] أضيفت إلى النص المترجم.

[234] الشمال.

[235] مفسدات الوضوء عند المندائيين تزيد على مفسدات الوضوء عند المسلمين بشرب الدواء ولمس لحم أجنبي.

[236] ليس عند المندائيين أذان كما هو متعارف عند المسلمين، هذا ما أكده الشَّيخ عبدالله نجم لي. وإذا كان الصَّوت خفيضاً والطَّقوس تجري بسرية وكتمان فالسبب المحيط الاجتماعي وإيذاؤهم.

[237] آرامي.

[238]وردت أخطاء في النَّص الأصلي، وهو كالآتي: قوم قوم بهيري، زدقه قوم شلماني وامهيمتي، قوم ازغد او شيه الهيه ربي اوشيه الملكه شيشلام ريه اوشيه التنه كسيه هام زيوه ارشيه الانيه اوسندركه ادايد اثري منه اهوى انا غدتيالى او شيانالى الها هو ملكه رامه ربه دنهوره يهاسه ادامل رهمي. وترجمتها، حسب الأصل، قوموا قوموا مخلصين مصدقين مؤمنين، اسجدوا وسبحوا الرب الحي، وسبحوا الملك شيشلام ربه، والشجرة الخفية، وسبحوا النخلة عينها، التي منها الأب الأثري، الذي أنشأه رب العالمين، أنا نسجد له ونسبحه، وكذا الشخص الملك العالي النوراني الشفيع المملوء رحمة.

[239] قال الشَّيخ عبدالله: لأن يحيى تزوج وعليه أن يرعى عائلته، فطلب تقليل أوقات الصلاة إلى ثلاثة أوقات، لتسهل عليه.

[240] أضفنا الكلمة ليستقيم المعنى.

[241] تتألف الملابس الدِّينية مِن: القميص أو الرِّداء، والشِّروال طويل إلى أسفل القدم،= = والهيمانة أي الزِّنار وهي عبارة عن حزام صوفي، والعِمامة وتسمى البرزينقا، أما التَّاغة فخاصة برجل الدِّين، وهي عبارة عن تاج (رومي، الصَّابئة، ص129. والزِّهيري، الدِّين الأول، ص53).

[242] وردت في الأصل خطأً: باشم هون ادهي ربي يابابه ربه ادبيث رهمي يقري اسوثه زكوثه نهذي الخون (منها) باشم هون ادهي ربي قدمايي نخرايي من آل مي دنهوره يترى او الآ وى كل هون ابوادي باشم اهي وباشم ارمن دا ادهي وباشم ايها هو كوراقدمايه اتفتش من نوادم مي اوزيوه وانهوره وبقاره او منافش ابرش.

[243] الصوم عند المندائيين أيام متفرقة من شهور السَّنة، وهو الامتناع عن تناول أكل اللحم، والسَّمك، والبيض، وتُسمى أيام المبطل، أي إبطال تناول هذه الأطعمة وإبطال أي عمل مُخلٍّ، والأيام هي: 6 و7 من شهر دولا (شباط)، و26–30 مِن شهر شمبلثا (أيلول)، واليوم الثَّاني مِن شهر هيطا (ديسمبر/ كانون الأول)، ويعدون الصَّوم الكبير هو الصّوم الرُّوحاني المتمثل بالآتي: غض البصر، وعدم التنصت على النَّاس وهم في بيوتهم، عدم الكذب، ترك الكلام السيئ، تطهير القلب والعقل من الأفكار الشريرة، وكل الأفعال السَّيئة (انظر: برنجي، الصَّابئة المندائيين، ص240. ورومي، الصَّابئة، ص133).

في أمر الصَّوم وما علاقة تشريعه بالواقع الاجتماعي قال المؤرخ حمزة بن الحسن الأَصفهاني (ت 360 هـ) مؤرخاً للملك الفارسي سارويه: «في زمانه حدث الصَّوم، وكان المبدع له قوم فقراء مِن أتباع رَجل يُقال له يوداسف. والسَّبب في ذلك كان تعذر الطَّعام، فبدروا أن يطووا النَّهار على الطَّوى ثم يتناولون ماءً يمسك الرَمق، فاعتادوا على ذلك زماناً، ثم اعتقدوه ديانةً وعبادة لله، وسمَّى أولئك الفرق كلدانيين، وسموا أنفسهم في زمان دولة الإسلام صابئيين» (تاريخ سِني ملوك الأرض والأنبياء، ص23 –24).

[244] هذا لدى المسلمين، فلماذا يريد المؤلف مِن غير المسلمين الالتزام به، وإلا ما اختلفت الأديان بعضها عن بعض.

[245] الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان.

[246] حسب الشَّيخ عبدالله نجم، أن من محرماتهم: لحم الخنزير، والحيوان المفترس، والطَّير الجارح، وأنثى الحيوان، والحيوان المعاق، وليس لتحريمهم علاقة بذَنب الحيوان. كذلك راجع في محرماتهم: رومي، الصَّابئة، ص132 وما بعدها.

[247] وردت في الأصل: لا شرب الخمر القليل.

[248] وابنة الأخ.

[249]لعله يقصد «متقوماً» المال المتقوم، أي الذي له قيمة.

[250] شماش أي كوكب الشمس ولا يعدونه ملكاً، لدى الصَّابئة المندائيين أفكار خاصة في صعود الأرواح، أو ما يُعبَّر عنه بناقلات الأرواح، سفن إلى الشَّمس، والقمر، والزُّهرة، عبرت عنه رسومات وتخطيطات قديمة (راجع كتابنا الأديان والمذاهب بالعراق، الفصل الأول: الصَّابئة المندائية).

[251] وردت في الأصل: هيفل زيوه، أحياناً تُستبدل الباء بالفاء، لكن لأنها أتت هيبل زيوا في صفحات الكتاب كافة، فحرصنا على استخدامها.

[252] أعياد الصَّابئة حسب مصادرهم كالآتي: دهوراربا العيد الكبير، ودهوا حونينينا العيد الصَّغير، وبروانا عيد البنجة، ودهوا ديمانة يوم ولادة يحيى (برنجي، الصَّابئة المندائيون، 207)، ومناسبات أُخر تُعد ثانوية بالنسبة لهذه الأعياد.

[253] السَّنة المندائية (365) يوماً، (360) يوماً يضاف لها خمسة أيام الكبس (مراني، مفاهيم صابئية مندائية، ص138).

[254] تبدأ السَّنة المندائية بشهر فبراير/ شباط (المصدر نفسه).

[255] ناقص من النص.

[256] نجد هذه الشُّهور في مصدر آخر، كتبه أحد المندائيين المتضلعين في الدِّيانة، مرتبة مثلما ورد في نص الكتاب، وهي كالآتي: أمبرا، تورا، صلمى، سرطانا، أربا، شمبلتا، قينا، ارقوا، هطيا، كديا، دولا، نونا (برنجي، الصَّابئة المندائيون، 206). لكن حسب ناجية مراني والليدي دراوور، فإن أشهر السَّنة كالآتي: شباط، آذار، نيسان، آيار، سيوان، تموز، آب، أيلول، تشرين، مشروان: (تشروان) كانون، طابيث (مفاهيم صابئية مندائية، ص139 والصَّابئة المندائيون، ص144). ما يقابل تسمية هذه الشُّهور بالمندائية والتي تعد كأبراج لها: دولا: شباط، نونا: آذار، أمبرا: نيسان، تورا: أيار، صلمى: سيوان (حزيران)، سرطانا: تموز، أربا: آب، شمبلتا: أيلول، قينا: تشرين (الأول)، ارقبا: مشروان (تشرين الثاني)، هطيا: كانون الأول، كديا أو جديا: طابيث (كانون الثاني).

[257] يقصد: يحيى والمسيح.

[258] في هذا اليوم خلق الله العالم.

[259] وردت في الأصل موشيا.

[260] قال الشَّيخ عبدالله: دخلت هذه التسمية بتأثيرات فارسية، وأصل تسمية العيد البروانا.

[261] وردت في الأصل طباث.

[262] الآرامي.

[263] لعله شيشلام ربا، أو شيشلام الكبير، ويعتقد المندائيون لأن زواجهم يُشابه زواج هذا الملاك مِن زوجته إزلات ربتي (الزِّهيري، الدِّين الأَول، ص87).

[264] يسمونه إبراهيم الكبير عند التعميد، حدثني المتفقه في الدِّيانة المندائية، مِن أهل الأهواز، المندائي سالم الحجيلي، أن بهرام ربه هو غير إبراهيم النَّبي التوراتي المعروف.

[265] لا توجد كنائس لدى المندائيين، وإنما معابد تعرف بالمندیات.

[266] وردت بيضاء.

[267] يُسمى: دهر حونين (برنجي، الصَّابئة المندائيون، ص208).

[268] لا علاقة للكرصة بالتكريس، ويعني تعميد رجال الدِّين لغرض الحصول على درجة دينية. وفي هذا العيد يحتفل المندائيون بخلق العالم، وعلة عدم الخروج طيلة هذا العيد الابتعاد عن النجاسات، ومَنْ لا يخرج فيه هو المندائي.

[269] وردت في النَّص: نوروزربا. والكرصة مدة 36 ساعة.

[270] الآرامية.

[271] فحسب الدَّرجة الدِّينية لا يقصد ما سرده عليه الشَّيخ دِخَيِّل بن عيدان، بل شيخ آخر، لأن الشيخ دِخَيِّل حصل على درجة الكَزبرا العام 1910 (المباركي، رجال الدِّين المندائيين، ص119).

[272] دراشة اد اد يهيا.

[273] أضفنا كلمة الرجل لكي يستقيم المعنى.

[274] في الأصل لزوجة.

[275] الزنّار.

[276] هكذا وردت، والمقصود يرتمس.

[277] في الأصل طرز.

[278] الآرامية–المندائية الشرقية.

[279] آرامية.

[280] لكن بعد وجود المحاكم المدنية أصبح الطَّلاق يُرسم فيها، وربما يُرسل الزَّوجان إلى رجل دين مسلم، أو من دبانة أُخرى لرسم الطَّلاق، هو لعدم وجود صيغة طلاق لدى الصَّابئة المندائيين حتى تُقرأ أو تُعقد بينهما، وحسب مصدر مندائي أن الزَّوجة تبقى على ذِمة الزَّوج، بعد افتراقهما، إلا إذا تزوج بإمرأة أُخرى فيسخ العقد (برنجي، الصَّابئة المندائيين، ص204).

[281] لم يستخدم الصَّابئة المندائيون تسمية القس.

[282] آرامية.

[283] ليس صحيحاً، قال الشَّيخ عبدالله: الدِّين المندائي لا يسمح بالزواج بأكثر من واحدة، وما ذكر عن زواج عدد من شيوخ الدِّين مثل الشَّيخ دِخَيِّل آل شيخ عيدان هذا اجتهاد منه، وليس من الدِّين.

[284] يقصد المسلمين.

[285] راجع ملحق: المندائيون في الذَّاكرة الإسلامية.

[286] ما سمعته مِن أحد شيوخهم أنهم لا يحتفظون بالقبر سوى خمسة وأربعين يوماً، ففي هذه الفترة تصعد الرُوح إلى المطراثي حيث تصفية الذُنوب، وهم في حالة القبور الدَّوارس، أو عدم عنياتهم بالأضرحة وبناء القبور يشبهون إلى حدٍّ كبير وصايا الحنابلة، وتطبيقاتها الشديدة بالمملكة العربية السُعودية، وكذلك في بعض الدُول الخليجية.

هناك عبارة قيلت عند وفاة يحيى تختصر زهدهم في الجسد بعد الوفاة، وهي «بحزن مكتوم ينسحبون الواحد بعد الآخر تاركين الجسد المُغيب في اللَّحدِ. بعد ذلك يُحضرون قدحاً مِن الماء وبعضاً مِن الخبز وينسون الجسد» (دراشة إد يهيا، ص95).

[287] جاء في الكَنزا ربَّا، القسم اليمين، الكتاب الأول، ص22 (طبعة سدني): «إذا مات أحد من أقربائكم فلا تبكوا عليه مولولين ناحبين، لا تأكلوا خبز التبرعات ثواباً عليه. كل مَن يبكي على شخص ميت سوف يلقى به بالأنهار حالماً تفيض هذه بالمياه. مَن يمزق ثوبه عند الزيق فسوف يحمل خطيئته هذه أبد الدهر. مَنْ يقتلع شعر رأسه حزناً وغماً على المتوفى فسوف يُحبس في جبل الظلمات ويترك وحيداً».

[288] جعلنا هذا النَّص ضمن فصل الأموات فهو محله المناسب، وكان بعد الوصية والمواريث.

[289] المطهر.

[290] وضعنا هذه العبارة لكي يستقيم المعنى، وقد وردت كلمة الحجم بدلاً عن الجحيم.

[291] جهنم.

[292] وردت هكذا.

[293] الشَّيخ دِخَيَّل بن عيدان.

[294] دراشة اد يهيا.

[295] لأنه لا يحظى بطقوس التطهير قبيل الوفاة، ومنها غسله وإكساؤه الرسته.

[296] علل الشَّيخ عبدالله نجم عدم وجود تشريعات مندائية للميراث بعدم الإيمان بجمع المال، والنقود والأموال بشتى أشكالها، وليس لديهم غير الرحمة والصدقة، لهذا لم يحتاجوا إلى تشريع خاص بالمواريث.

[297] هو النُّحاس نفسه.

[298] أديب وعالم، ألمَّ بمختلف العلوم، وكان من أعيان العصر البويهي، قال فيه الثعالبي: «به تثنى الخناصر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة، وكان آل زهرون أجداده من جهة أبيه وآل قرة أجداده من جهة أمه، توفي السنة (384)هـ». (الديباجي، الأدباء الصَّابئة في العصر العباسي، ص53 وما بعدها).

[299] من قصيدة للشَّريف الرَّضي (ت 406 هـ)، استغرقت ثمانين بيتاً، مِن الحق أن تُعرف بالصابئية.

[300] ورد في الأصل: أبو الحسن هلال بن الحسن.

[301] إمام النَّحو، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسي الفسوي، عاش ببغداد، ودرس على يد الزجاج، قال عنه عضد الدولة: أنا غلام أبي علي في النَّحو وغلام الرازي في النجوم، توفي السنة 377هـ (الذَّهبي، سير أعلام النبلاء).

[302] أبو الحسن الرُّماني لغوي ومفسر معتزلي، أصله مِن سامراء، ومولده ونشأته ببغداد، مِن كتبه: «الأكوان»، «المعلوم والمجهول»، و«الأسماء والصفات»، و«النكت في إعجاز القرآن»، توفي السنة 384هـ (الزِّركلي، الأعلام).

[303] لم أعثر له على ترجمة.

[304] ظل صابئياً، يدل على ذلك ما قاله الشريف المرتضى معقباً على قصيدة أخيه الشَّريف الرَّضي وبيتها المذكور بقوله: «نعم علمنا أنهم حملوا على الأعواد كلباً كافراً صابئاً عجلَ به إلى نار جهنم» (القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص55).

[305] محمد بن الهلال بن المحسِّن، مؤرخ وأديب من أهل بغداد، كان محترماً عند الخلفاء والملوك، أنشأ دار كتب ببغداد تحتوي على أربعة آلاف مجلد، توفي السنة 480هـ (الزركلي، الأعلام).

[306] أبو الحسن ثابت بن قرة بن زهرون، طبيب ومحاسب وفيلسوف ومترجم عن السريانية، ولد ونشأ بحران بين دجلة والفرات، اتصل بالمعتضد العباسي، وصنف حوال 150 كتاباً في الطِّب والهندسة والفلك، توفي ببغداد السنة 288هـ (الزركلي، الأعلام).

[307] أبو سعيد نجل ثابت بن قرة، كان رفيع المنزلة عند المقتدر العباسي، وجعله رئيساً للأطباء، ولم يؤذن لأحد باحتراف الطِّب إلا بموافقته، له رسالة في شرح مذهب الصَّابئين، ورسالة في الصلاة الصابئية، وأخرى في أخبار أجداده وآبائه، وله كتاب التاجي في تاريخ آل بويه، توفي ببغداد السنة (331هـ) (الزركلي، الأعلام).

[308] حفيد ثابت بن قرة، طبيب ومؤرخ، خدم الراضي بالله العباسي والمتقي والمكتفي والمطيع، وهو خال هلال بن المحسِّن الصابي، توفي السنة (365هـ) (الزِّركلي، الأعلام).

[309] إن سبب ذلك يعود إلى سوء أحوالهم أيام الدَّولة العثمانية وعدم الاعتراف لهم بوجود، على خلاف الدَّولة العباسية التي قربتهم واستفادت مِن عقولهم.

[310] قال الشَّيخ عبدالله: ليست عبارة دينية، وهي من أُصول فارسية. والتحية المعروفة على الجماعة هي: اسوثه نهبيل خون، أي السلام عليكم، وللفرد: اسوثه نهبيلخ.

[311] قال الشَّيخ المذكور: معنى ماري أي الذي لا يُرى، ومعنى العبارة كاملة: الله يحفظك.

[312] تاريخ بغداد، 13 ص200.

[313] النجوم الزاهرة، 2 ص 166.

[314] رومي، الصابئة، ص46 و112، وسباهي، الصابئة، ص176.

[315] التَّوبة: 28.

[316] الشهرستاني، الملل والنحل 2 ص5.

[317] المصدر نفسه 1 ص9-44.

[318] المصدر نفسه 2 ص6.

[319] مراني، مفاهيم صابئية مندائية، ص99.

[320] رومي، الصابئة، ص180

[321] المصدر نفسه.

[322] المصدر نفسه، ص 188.

[323] المعري، ديوان لزُوم ما لا يَلزم 2 ص 197. وردت في الديوان، البيت الثاني، كقُر ولعلها كثُر.

[324] آل عمران 85

[325] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص218.

[326] البقرة 62.

[327] المائدة 69.

[328] الحج 17.

[329] الواحدي، أسباب النزول، ص22–23

[330] المصدر نفسه.

[331] تاريخ الأمم والملوك 2 ص217. ورد عند هادي العلوي في «شخصيات غير قلقة في الإسلام» ص12 بروزبه، وهنا نعتمد رواية الطَّبري.

[332] ابن عبدالبر، الاستيعاب 2ص 636.

[333] الرسالة الثانية في الإسلام، ص16.

[334] الحج: 78.

[335] برنجي، الصابئة المندائيون، ص42.

[336] آل عمران: 67

[337] شخصيات غير قلقة في الإسلام، ص19

[338] التوبة: 34 و35. تعد سورة التوبة أو براءة من أشد السور تهديداً للمشركين، وهي السورة الوحيدة التي لم تُستهل بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم». وحين سأل الإمام علي بن أبي طالب عن السبب قال: «لأنها أمان وبراءة نزلت بالسَّيف» (جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن 1 ص 142).

[339] كَنزاربا اليمين، بغداد 2000، ص 264.

[340] كَنزاربا اليسار، بغداد 2000، ص 127.

[341] المصدر نفسه، ص126.

[342] الطَّبري، جامع البيان عن تأويل القرآن 2 ص 145–146.

[343] الصنعاني، تفسير القرآن، 1ص47.

[344] الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 1 ص285.

[345] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد 7 ص 269–270.

[346] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، ص70.

[347] الكَنزاربا اليمين، ص117.

[348] المصدر نفسه، ص265.

[349] المصدر نفسه، 264.

[350] أبو يوسف، الخراج، ص128.

[351] الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 1 ص279.

[352] الماوردي، الأحكام السلطانية، ص143.

[353] الشافعي، كتاب الأم 9 ص293.

[354] ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة 1 ص97-99.

[355] المصدر نفسه.

[356] البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر 4 ص454-455.

[357] الشيرازي، تقريب القرآن إلى الأذهان 1 ص78.

[358] الطَّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن 1 ص196.

[359] فضل الله، من وحي القرآن 2 ص69.

[360] آل عمران: 85.

[361] من وحي القرآن 2 ص69.

[362] مغنية، التفسير الكاشف 1 ص117.

[363] ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذِّمة 1 ص94.

[364] رومي، الصابئة، ص53.

[365] الصابئة حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينية، ص40.

[366] المصدر نفسه.

[367] المصدر نفسه، ص41.

[368] المصدر نفسه.

[369] المصدر نفسه، ص42.

[370] المصدر نفسه.

[371] المصدر نفسه.

[372] دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ص44.

[373] رسائل الصابئ والشريف الرضي، ص45–55

[374] المصدر نفسه، ص105–106.

[375] ترتزت، أهل الذمة في الإسلام، ص180.

[376] القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكاء، ص55.

[377] ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء 2 ص199

[378] المصدر نفسه، 2 ص204.

[379] المصدر نفسه.

[380] راجع جريدة الثورة العراقية 5 أبريل(نيسان) 1991.

[381] راجع حوارات بابل، جريدة بابل، تاريخ: 4، 10، 13 أبريل(نيسان) 2002.

[382] شهادة التاريخ: عقد من حياة صدام حسين في ميزان الإسلام، جريدة العرب العالمية، العدد 6813، التاريخ: 18 ديسمبر(كانون الأول) 2003.

[383] كتاب الكَنزا ربا، القسم اليمين، الكتاب الأول، ص23 نسخة أستراليا.

[384] المصدر نفسه.

[385] المصدر نفسه.

[386] الطَّبري، تاريخ الملوك والرسل 1 ص171

[387] المصدر نفسه.

[388] المصدر نفسه، ص172–179.

[389] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر 1 ص43

[390] سورة مريم، الآية: 58.

[391] السيوطي، حسِن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 1 ص12.

[392] مروج الذهب، 1 ص263.

[393] كتاب القلستا، ص 1 و26.

[394] قاموس الكتاب المقدس، ص787.

[395] الفيروزأبادي، القاموس المحيط، ص471.

[396] النديم، الفهرست، ص403.

[397] المصدر نفسه، ص404.

[398] المصدر نفسه، ص389.

[399] المصدر نفسه، ص403.

[400] نعيم بدوي، الصابئة فلسفة وتاريخاً، محاضرة ألقيت على أساتذة وطلاب قسم الدين في كلية الآداب–جامعة بغداد، 29 أبريل(نيسان) 1975.

[401] النديم، الفهرست، ص403.

[402] المصدر نفسه، ص392.

[403] مصطلحات كنزاربا اليمين.

[404] البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص 206.

[405] الكَنزاربا، اليمين، الكتاب الرابع عشر، التَّسبيح الأول، ص226.

[406] البيروني، القانون المسعودي 1 ص267.

[407] البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص205.

[408] الجاحظ، كتاب الحيوان 1 ص25.

[409] الكَنزاربا اليمين، الكتاب الثاني، ص38–39.

[410] رومي، الصَّابئة، ص19، عن كتاب حران كويثا.

[411] النديم الفهرست، ص24.

[412] المصدر نفسه.

[413] المصدر نفسه، ص24–25.

[414] مريم: 12.

[415] ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء 2 ص199.

[416] سعد الأشعري، المقالات والفرق، ص41.

[417] الذيب، ختان الذكور والإناث، ص141.

[418] الخطيب، فقه الطِّفل، ص164– 169.

[419] راجع ختان الذكور والإناث، ص131–138.

[420] الأشعري، المقالات والفرق، ص31.